الوجه الحسن

محمود محمد طبل

الهيئة العامة لقصور الثقافة
اقليــم القنــاة وسينــاء
ثقافة شمال سيناء

ابداعات
شمال سيناء

المراسلات : مديرية ثقافة شمال سيناء ت : ٣٤٠٧٩٢

كلمة الثقافة

من بوابة مصر الشرقية ، من أرض سيناء ، ومع إشراقة الشمس على حدودنا يشرق الإبداع والأدب والثقافة في محاولة لاستشراف المستقبل الجديد الذي يتمتع بالتنمية الشاملة من أجل تغير الخريطة السيناوية الصفراء إلى دلتا أخرى يغيرها ماء النيل ليكتسي لونها باللون الأخضر ، وهذا في حد ذاته تخطيط وفكر وإبداع ناتج عن ثقافة تتمتع بالحب والانتماء لتأكيد الحضارة المصرية الضاربة في أعماق الزمن .

من هنا كان اهتمام الثقافة بالتراث والموروث والأدب قديمه وحديثه للحفاظ على الهوية ، وملاحقة كل تقدم .

وها نحن اليوم نقدم فكراً جاداً وإبداعاً أصيلا لشعراء سيناء الحبيبة ،

ونتقدم بخالص الشكر **للأستاذ الناقد / علي أبو شادي** رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة .

والأستاذ الفنان / عبد الرحمن نور الدين رئيس الإقليم

للاهتمام الخاص بسيناء وتشجيع المبدعين والحركة الثقافية في ربوع سيناء ، كما نتقدم بخالص الشكر للسيد اللواء / **أحمد عبد الحميد محافظ شمال سيناء** لدعمه الدائم للحركة الثقافية من أجل ترسيخ وتأكيد دور الثقافة على كل أرض الرسالات

ومع أطيب تمنياتي بدوام الازدهار والتقدم في شتى مجالات التنمية على أرض مصرنا الحبيبة وخاصة التنمية البشرية تحت القيادة الحكيمة

للرئيس محمد حسني مبارك

محمد أحمد عبد العظيم

مدير ثقافة شمال سيناء

بسم الله الرحمن الرحيم

سينـــاء .. الأمــل

تقديم

محمد جبريل

منذ شغلني الاهتمام بعلم الاجتماع الأدبي ، لم أجد أصدق تعبيراً عن البيئة من هذه المجموعة ..

ومع التأكيد على فروق فنية يصعب إهمالها ، فإن هذه المجموعة تعبير مهم عن بيئة سيناء التي ينتمي إليها محمود محمد طبل ، مثلما عبر أستاذنا نجيب محفوظ في ثلاثيته عن قاهرة الفترة من مطالع القرن العشرين إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ومثلما عبر عبد الحميد السحار عن الحياة في كفر عشري في الإسكندرية ، ومحمود دياب عن تخلق الحياة في الحي العربي بالإسماعيلية ، وعبد المنعم الصاوى عن واقع القرية في كنيسة الضهرية ، ويوسف إدريس عن العلاقة بين الريف والمدينة ، وعبد الحكيم قاسم عن حياة البسطاء في طنطا ، ويحيى الطاهر ومحمد مستجاب عن ناس الجنوب الخ .. وكما يقول كوريه : فان العمل الفني وثيقة اجتماعية ..

سيناء – كبداية – عانت ظروفاً قاسية ، وابتعاداً عن الوطن الام ، قبل أن تتحول – بعد ١٩٧٣ – إلى محافظة مدنية ، تتصل ببقية أنحاء الوطن ، وتوجه إليها الخدمات . ثمة انتظار المطر ، وانهمار السيل ، والاعتماد على محاصيل زراعية محدودة ، وقلة فرص العمل ، وانقطاع الصلة بالوطن الام ، وغيرها من المظاهر السلبية ، التي أسقطها الواقع الجديد في سيناء ..

تناول محمد فريد أبو حديد بيئة البادية في روايته الجميلة " أزهار الشوك " ، وعلى صبري موسى بتصوير بادية الصحراء الشرقية في رائعته " فساد الأمكنة " . قيمة هذه المجموعة إنها لكاتب من أبناء سيناء ، فهو – بالضرورة – قد تعرف إلى بيئته قبل أن يحاول .

مفردات هذه المجموعة هي الخيمة ، الجبل ، البادية ، الصحراء ، الكثبان ، الرمال الصفراء ، الليل ، الربوة ، الأغنام ، الطيور المهاجرة ، السيل ، الحصير ..

وفى قصة " الاغتيال سراً " يتحدث الراوي عن رؤية ابن سيناء للحياة في العاصمة .

رغم كل العذابات ، ورغم المسافة فان مدينة العريش في الشرق البعيد ، وبين القاهرة في الغرب القريب . ويدرك الراوى الفرق بين الحياة في البادية بكل فطرتها وخشونتها وانعزالها عن العالم المحيط بها ، وبين المدينة الحديثة التي تتلخص في مسميات مثل التلفزيون والكمبيوتر والراديو والغسالة الكهربائية ووسائل الترفيه الحديثة ..

***

قصص هذه المجموعة تتحدث عن الأمل ..

أما الأمل في الأتي ، في الطفولة ، في المستقبل ، فهو يبين عن ملامحه في قصص : الوجه الحسن ، البداية ، نحن الأمل ، الخ .

يقول الطفل : " لا تدعنا ، لا تدعنا ، فنحن الأمل ! الأمل في البداية ولنا أن نلمس الأدلة في المستقبل والطفولة هنا – متمثلة في الأبناء – تجاوز تردد الكبار ، وأحجامهم عن محاولة تصور المستقبل ، واستخدام آلياته ، وإخضاعه . نحن نتعرف إلى الأمل في المستقبل في قصص : الوجه الحسن ، الاغتيال سراً ، البداية ، نحن الأمل ، غاده ، فتى الفتيان ، الحصاد مرتان ، غفوة ، نظرة واحدة تكفى ، الخ ..

وحين يقول الأب لابنه " كسبت المباراة يا صغيري " فانه يعني الاعتراف بالفوز بالمستقبل . الصغير هنا هو المستقبل ، بكل ما يعنيه من احتمالات إيجابية .

إن الكمبيوتر الذي يحجم بعض الكبار عن استخدامه يبدو – في استخدامات الأطفال / المستقبل ، لغة سهله ، بل هو مجرد لعبة في أيديهم

***

والأمل في العلم أيضاً . من يلجأ إلى العلم فإنه يدخل من الباب السحري إلى المستقبل .

الحاضر لابد أن يتصل بالماضي ، بالتاريخ ، بالتراث ، لكنه لابد أن يتصل بالمستقبل أيضاً .

والمستقبل – بأبسط عبارة – هو العلم بكل ما يحمله من توقعات إيجابية وسلبية في آن ..

***

وثمة الأمل في الإصرار والتحدى والمقاومة ، والمستقبل ..

وإذا كان الفنان قد انتصر للأمل في المستقبل على المستويين الفردي والجمعي ، فان الأحداث التي عاشتها سيناء منذ يونيو ١٩٦٧ تضع المرارة على شفتي المتلقي : " كانت عيناي تنظران إلى عربة القطار الخالية من القضبان ، وأتذكر آخر مرة كان أبي فيها عائداً من القاهرة . انتظرته وأسرتي على محطة العريش . منذ ذلك الحين لم أرى قطاراً ، لكنني رأيت عربة محترقة على قضبان صدئة ، ورأيت المحطة المهجورة ، وقضبان كثيرة متراصة ، فوق تحصينات مهشمة " ..

كانت حرب يونيو ١٩٦٧ محور العديد من الإبداعات ، اكتفت جميعها بتصوير مفاجأة الهزيمة وفداحتها . الفنان في قصة " أسياد .. أحياء وأموات " يهبنا التيقن بأن العدو لم يطأ في تلك الأيام أرضاً ممهدة ، وإنما واجه مقاومة صلبة ، سواء من القوات المصرية التي لم تلحقها أوامر الانسحاب الغبية ، أو من أبناء سيناء الذين ما لبثوا أن شكلوا كتائب عفوية ، حاولت رد العدوان . ولنقرأ هذه الفقرات : " الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ . الصباح عتم . طائرات قاتمة اللون اخترقت مسامعي ، احتلت جوانب فكرى . أكتم صرختي وحزني . الدخان يتصاعد جنوباً . المطار يحترق . الدخان يتصاعد شرقاً . الثكنات تحترق . الدخان يتصاعد شمالاً . تحترق أغصان غضه من جميزة وحشية تترهل بجوار جزعها ، وبقايا تحترق ما زال المذياع يصيح . النداءات تهلل . الناس يتصايحون . يهرولون . الحرب . الحرب . قفزت أمي إلى صحن الدار ، تنظر إلى السماء : يا رب . جديدة لغة الحرب . جديدة لغة النصر . كلمات الدعاء قصيرة .. الآن انتشرنا جميعاً انتشار الهشيم ، ننظر إلى السماء والدخان والصراخ والرصاص وباب الدار الخ ..."

ولأن المقاومة كانت عنيدة ، وضارية ، فقد شد القائد الصهيوني قامته ، وأدى التحية ، وتبعه مرافقوه ..

وعلى الرغم من الهزيمة العسكرية ، فان دلائل الصمود لاحت بعد أيام قليلة . بالتحديد – كما يقول الفنان – في الأول من يوليو : " حشر نفسه في كتائب التحدي . أصر إصرار الواثق بربه . العارف حدوده

، والمتطلع إليه في شغف دائب . سنوات الكلية الحربية قليلة . العمل المتواصل عبر بنا حدود الزمن . جعل فينا أملا فنياً ، ورغبة ملحه في انطلاقة جديدة " ...

لقد ظل الحس الوطني غلاباً . نتبينه في وقفة أبناء سيناء من توالى الأحداث ، فهم يشاركون في الدفاع عن أرضهم ، ويقاومون الوجود الاحتلال ..

ويحل السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وتزحف ريح الغضب على صفحات المياه ، اتجاه المد للمرة الأولى في اتجاه واحد ..

***

إن بانورامية هذه المجموعة تهب متلقيها الإحساس بأن الحياة تتخلق من الموت ، والإصرار من التخاذل ، والمقاومة من الهزيمة ، والأمل من اليأس .. وحب الوطن بعامة ، والموطن بخاصة ، يبين عن نفسة في الكثير من الأحداث والقسمات والملامح .

" محمد جبريل "

إهداء

إلى كل من علمني حرفاً أعود بالفضل
إليه بعد الله سبحانه و تعالى

المؤلف

محمود محمد طبل

الوجه الحسن

بزغ صباح اليوم ، شمس مشرقة ضاربة صفحة الماء الساكن المالح .. الهائج المتوتر طوال ساعات اليوم بين مدٍ ممتد ، وجذرٍ حسير .

تنطلق فراشات الحب من فم صبية لايتجاوز عمرها خمس سنوات ، تلثم الهواء بأنفها وخديها ، تعطر المكان بعذوبة صوتها وصدق مرفئها ، تقف في شرفة شرقية تطل على مياه من رافد خليجي متواتر ، تنظر الأمل في عينيها تلمح الضوء المنعكس في همسات الموج الخفيف الذابل ، وجندى لم يزل عمر خدمته لايزيد عن بضعة شهور ، الساحل الممتد ، الزمن يسير في تؤدة خطوات نعاله .. لاتزال أثارها تركض خلفه ؛ تلاحقه لاتتركني فالمد قادم لا محالة ، قائدة يتابع في مرور دورى ، يتفقد المكان ، يصدر الأوامر ، يتحسس الأخبار ، ولاسيما في منطقه حدودية هامة ، انها جنوب سيناء بامتدادها الشرقي . الشمس تعتلى الأفق المذدان بحمرة البكارة في خجل الأنوثة الناعسة ، وجمرة السعير في شوق الشواء على مواقد المحبين عند تعامدها على صفحة الماء .

داعبت الصبية خصلات مسدلة من شعرها الذهبى. قفز لخاطرها أن تجاري طيور البحر السابحة في ملهاها .. وملعبها ، جذبت يد أبيها تشير إليه ، حملها بين ذراعيه ، يحمل وديعته ، وضعها في قارب مطاطي إبتاعه خصيصاً لها ، شده إلى وتد بعيد عن الشاطئ مغروس بعمق .

ما زال البحر حسير، وخطوات الجندى لازالت تختلج بين غدو ورواح ، السيارة العسكرية .. يلمحها ، يركز بصره عليها ، كأنما ينتظر إشارة ..صوت .. استغاثة. الصبية تلهو كالعادتها، إنها تحب الماء عشقاً واللهو بدون بلل وملل،ضحكاتها جذبت انتباه الجندى،ملمح جميل ماء .. بلا خضرة

والوجه الحسن ، شقان من ثلاث، بعثا فيه مجدداً أملاً فى عود قريب إلى أهله وبنات أخته .

الوقت ممتد طولاً ، النهار كاد ينتصف ، الماء غطى الوتد الموثـوق إليه قاربها ، الحبل البرتقالي اللون يجذبني إليه ، اقتربت من الوتـد ، مـدت ذراعها .. أناملها تتحسس عقد الحبل المجدول ، اتقلت الحبل وبدأت عُقـداً من نوع جديد تحل رويداً .. رويداً . تيارات مضادة للمدُ ، تجذب قاربى مـن طرف خفى ، مازالت تلهو بالماء ، القارب ابتعد ، الجندى لاحظ ابتعـاده ، لايعرف للعوم سبيل ، الجندى ينظر في حيرة !! أين أبيها هل تركها للقـدر ؟ أم ترك للبحر الخيار ؟!! يزداد المد انتشاراً يجذب نحوه أنواعاً متطفلـة مـن السمك تأكل البقايا من الشاطئ المنحسر ، السمك يلتف حـول القـارب ، الصغيرة ما زالت تلهو ، تعبث بالماء بمجدافها البلاستكي الصغير ، ألها تبتعـد أكثر فأكثر ، الجندي تسمرت قدماه بالأرض ، يتحسس موقعـه ، أخذتـه الحمية ، ركض نحو السيارة الرابضة هناك ، تأكد أن مصير الصبية محتـوم إن استمر في تردده .

لم يلتفت إلى سائقها ، لكزه لكزة قوية أدر المحـرك ، السـائق لا يفهم شيئاً ، علامات رعب وخوف تملكت الجندي ، أقرب وحدة إنقاذ بحري ، هناك غريق .. غريقة .

الصبية تعبث بالماء ، ناوشتها سمكة في حجم قاربها ، تارة تلكز قاربها ، وتـارة تقفز أمامها اللعب احتدم ، تحول لصراع غير متكافئ ، تعالي صراخ الصبيـة ، تملكها خوف شديد ، السمكة جن جنونها ، القارب المطاطي تمزق جانبـه ، نافورة من الهواء المختلط برذاذ الماء تسرب سريعاً في جميع الإتجاهات .

الجندي وحرس الحدود والإنقاذ البحري .. جاءوا .. أين هي ..؟! .
الجندي .. نعم في هذا المكان تماماً .. كانت هناك ، ما زلت أذكرها ، ما زلت أسمع رنات ضحكاتها .. منذ متى كان ؟! نعم منذ قليل .. لا ..لا ، الإرتباك جلي ، الجندي يصيح منذ تسلمي الحراسة ، الجنود حوله : الحراسة ! حراستك إنتهت منذ ساعة ، ياه .. ثماني ساعات مرت ، جميلة هي .. لكن كابوس رعب يسيطر علي ، لا زالت الصبية هناك . هذا المكان شعاب مرجانية .. غابة حجرية ، والدها .. جاء .. أين ابنتي !؟ أين قاربها ؟!

اقتربت الشمس على المغيب ، لا بد أن يعود قبل حلول الظلام ، لكن الصبية لم تظهر بعد على صفحة الماء ، القارب اختفى سوى قطعة مطاطية تسبح بعيداً ، أنها بلا عمق وبلا بعد ، وبلا ارتفاع ، ليس لها شكل مميز .. انها جوفاء .

الأب : لن أعود إلا وابنتي معي ! سنعود بعد ساعة : الظلام يخيم على المكان ، لا نري شيئاً ، ولم نر شيئاً ، أنها هنا .. لا زالت هنا ، سنعود بعد ساعة أخري ، ..وساعة أخري ، أشعل مصابيح السيارة .. انطلق .. انتظر أري شيئاً هناك ، شئ مسجى على الشاطئ ، لقد انحسر الماء .. إنها هناك .

احتضن الأب وديعته يقبلها .. ونودعها .. منذ ذلك الحين لم أسمع ضحكاتها ، من يومها أفتقد الشق الثاني للجمال .. الوجه الحسن ،.

.. تمت ..

الاغتيال سراً

صغيراً لا أتجاوز سن العاشرة ، عرفت معنى الراديو ومعنى التلفاز ومعنى أجهزة كهربائية كثيرة ، عرفت ذلك دون قصد منى ودون عناء .

مجرد زيارة للعاصمة ، ومجردُ حوار قصير بين أبي وعمى الذى يقطن العاصمة منذ زمن بعيد .

يستقبلنا الأن على أعتاب داره ، أعنى بوابة الفيلا ،، بمصر الجديدة ، اصطحبنا إلى داخل الفيلا .. كما يقولون .

المسالة منذ بدايتها ليست مجرد صدفة عابرة ، بل قدر بكل مايعنيه اللفظ ، فأبي اهتم بالأرض ، اهتم بالنخيل الباسق على امتداد البصر ، أطلاعه مترامية هنا وهناك ، رافضة التروح مستمسكة بجذورها تخشى أن تغتال من أسفلها أو عن يمينها أو يسارها ، أستطيع الأن أجد لهن تشبيهاً يلاءم طبيعة المدينة ، فربما كن حراسات مدججات بأسلحة آلية أو مواسير مدافع متجهه صوب الشرق البعيد ، كما كان الأمر منذ زمن على الضفة الغربية لقناة السويس ، أما الآن فقد كبرت وعرفت الطريق جيداً نحو العاصمة ، ثلاثة عشر عاماً مظلمة ، قابع أتحدى ضعفى ، وأتحدى عمرى وأتحدى آي إنسان يحاول أن يسلب منى البقية الباقية من شجاعة ، لم يبق منها يومئذ عشرة بالمائة أو أزيد قليلاً ، أما باقي شجاعتي فما عرفت مقدارها مثل الآن ، أتنفس عطراً ، وأعشق زهراً يافعاً وأجنى محصولاً وفيراً وخيراً عميما .

فرغم كل العذابات ، ورغم المسافة بين مدينة العريش فى الشرق البعيد وبين القاهرة فى الغرب القريب ، الذي كان منذ زمن حلم أو أمل أتطلع إليه وأنا أعبث بدفاتري أو أقلب صفحات كتابي وأنا أستمع إلى صوت مذياع يعيد على مسامعى كلمات أغنية الناجح يرفع ايده ،، أردد كلماتها منتظراً الغروب من أعلى سطح الدار فى يوم شمسه كانت ساطعة أنظر الغروب — رمز اليأس لكنه الآن بدا رمزاً للأمل والحب الدفين لم أشأ أن أرتقي سلمات قليلة ودار ذلك كله بخلدي، افقت منها على جذبة قويه من يد عمى الذى كان يملؤه الأمل .

هامة عالية وجسم فتى وقلب نابض يرتشف السعادة من كل ماحوله ، عيناه نضاحتان بالبريق ولسان يجرى عليه الكلم ، كما يجرى النيل من آعالى روافده ، لينساب رقراقاً جميل المنظر ، عذب المذاق .

الآن وعند السلمة الأخيرة ، ينفرج الباب على مصراعيه ، فتقبل الدنيا منسابة منه ، بحبها وقلبها ونبضها، ما أروعك يا قاهره اليوم!وما أخف ظلك وأطيب هيئتك، صغيرة ابنة عمي..تكاد تكون فى نفس عمرى الآن او تصغرنى آنذاك ولكن شتان مابين العمرين، عمر تربى على الأمل ،وعمر تربى ينتظر الأمل من عيون غاديات متطلعات متربصات.

ضحكة رنانة مفاجئة، أجفلت حاضري وحاصرت مستقبلي،أعجز بكل ما أتيت من كلم ان اعبر عن لحظتها ، وان كنت استحى سماعها واعشق نبرها، الذى مازال مغروسا غرس جذع زيتونتنا القديمة فى عقر دارنا بالشرق، ومازالت تنبت بالخير وصبغ للآكلين.

انتشلتني من ضعفى وعجزى وأغرقتني فى هواها دون ان أدرى، ارتقت بى نحو سماء صافيه وأوحلت بقلبى الملتهف للحب.

ارتقيت بها نحو الشهامه نحو البلوغ والشباب نحو الرجولة والأنوثة ، اصطحبتنى بكلتا يديها النحيفتين نحو غرفتها، خجلت من دخولها ، جذبتنى..ترددت....خشيت ان تشعر بخوفى ولا تدرى مشاعرها الصغيرة مقدار خجلي ، انتصرت على خجلى سريعا، أرادت ان تغلق الباب ،شعرت باختناق حاد يسرى بكل أوصالي،اندفعت نحو النافذة، اشتم بعض هواء بارد، أتصبب عرقا ، طفولتها مازالت جريئة.... افهم الآن لغات جديده .. فتحت دولاباً معدنيا محشو

باجهزه بلاستيكية غير مرتبه ، مذياع،غسالة،عروسة،ولعب كثيرة، استشعرت كبريائى ، أخذت أقلب بطرف أصبعي بعض منها ، أرمقها من لحظة لأخرى ، أرى بريق عينيها ، أرى مقدار سعادتها وهي تحاول جاهدة أن تجسد شئ يناسبني أو على الأقل شئ صالح للاستعمال كي تقوم جاهدة بتشغيله ، فلم تجد سوى عربة قطار ينقصها القضبان .. فلا بأس .

كنت أثني على هذا الكم من وسائل الترفيه الحديثة وكنت أحاول مجاراتها خشية اصابتها بإحباط قد يفسد عليها غبطتها وسعادتها ، لم تمل ولم أمل ، وأنا أشدّ قامتي بين الحين والأخر ، وأزيح وجهي عن مفردات ألعابها الطفولية ، وكل أملي أن أخلو بها وحدي ، أتفرس صنعها وطريقة ابتكارها ولكن ليس ذلك في وجودها وخشية أن تلاحظ مدى لهفتي بممتلكاتها .

كانت عيناي تروغ إلى عربة القطار الخالية من القضبان وأتذكر أخر مرة كان فيها أبي عائداً من القاهرة عام سبعة وستين وانتظرته وأسرتي على محطة العريش ، منذ ذلك الحين لم أر قطاراً ولكني رأيت عربة محترقة على قضبان صدئه ورأيت المحطة المهجورة وقضبان كثيرة متراصة فوق تحصينات مهشمة .

والآن أجد عربة قطار : ولا أجد قضبان ولكن شتان . لا أدري لماذا كل هذا التراجع ؟ ولماذا كل تلك الذكريات المرة تعصف بي كما تعصف بكل أبناء جيلي الذي كنت أطلق عليه جيل الخوف والتحدي ؟ نعم الخوف من الحاضر وتحدي كل ما يأتي به المستقبل ليحبط من عزيمتنا .

أما الآن فالطفولة لها معنى جسدته زيارة إلى مكتب عمي بإحدى شركات قطاع الأعمال الحديثة – حيث عرفت الكمبيوتر ،

وعرفت لغة التعامل معه حديثاً وعرفت كم هو مجرد لعبة وألعوبة في أيـــدي الأطفال وهم يتنقلون بين محلات (الفيديو جيم ، وألعاب السرعة ، ســـباق السيارات ومطاردة الأشرار ومباريات كرة القدم وغيرها ، .. لقد كان يمـــر بي هذا كله وأنا أضع برنامجاً وأحط غيره ، تشـــابكت الأرقـــام وتشـــابهت الوسائل وتغيرت المشاهد حتى أنني كنت يوماً أقود ســـيارتي ويجلـــس ابـــني بجواري ، أخذ يذكرني بكم رهيب من أسماء ألعاب كمبيوتارية حديثة عـــاد بي إلى عمري الثاني ، لأتذكر وأنا حديث عهد بألعاب السرعة حيـــث كـــانت المباراة تبدأ بسيارة مسرعة واحدة وهناك عوائق كثيرة منها لتنتـــهي المبـــاراة نهاية عكسية .. يومها كم كنت سعيداً بصحبة أبني وأنا أحدثه وهـــو يتـــابع بشغف وفهم شديدين وكأنه يعيش حياتي .. أقصد أجمل أيام حياته .

ما زال مقود السيارة بين يدي .. لا يعنيني إشارات المرور بقدر مـــا يعنيـــني التحكم والسير بسرعة مذهلة .. أرتطم بشاب يركب دراجة ، يحمل علـــى رأسه سبتاً من الخبز .. ولكن في لحظة أنحرفت بعيداً عنه ليرتطم هو بـــالرصيف .. فقلت بصوتاً عالٍ .. أسمع به نفسي وكل من حولي .. الحمد لله .. لم يبـــق سوى ثلاث عوائق فطن أبني لسرعتي الجنونية وضحكـــاتي الهيســـترية وأنـــا أغالب هرمي وأنتصر لشبابي وطفولتي ، يجذبني من ساعدي .. ينادي بكل مـــا أوتيا من عزم وصوت وقوة .. أبي .. أبي .. انتظر .. تكاد السيارة تطير مـــن فوق الأرض ، رفعت قدمي عن دواسة الوقود ، أخذت يمين الطريق ، وقفـــت جانباً ونظرت إلى أبني الآخذ منذ فترة يتأملني وهو مشفق علـــي ، داعبتـــه هامساً .. الآن انتصر على هرمي وطفولتي في مباراة واحدة قائلاً له مداعبـــاً ..' كسبت المباراة يا صغيري ' ضحك وضحكت وعانقني عناقاً حاراً

، قدت سيارتي بهدوء شديد وأنا مصمم ألا أتذكر طفولتي مرة أخرى .

.. تمت ..

غـــادة

غادة لحتها العيون الصابحة ، فتعثرت على الطريــق ، خطــت أولى خطواتها نحو الطريق ممشوقة القد ، فارهة ، تغازل الدنيا بأســرها .. الطريــق المعبد .. جديد أسود لم يترب ، لون الأسفلت يحاكي لون شعرها المسدل على جيد مرمري ، امتشقت نظارة شمسية تخفي عينين كحيلتين ، ينتصف الطريــق إلى المحطة ، تحت نظرات العيون الثاقبة تكوي جيدها ، أخرجت شالا حريريــا من حقيبة يدها ، التحفته ، لينسدل على جانبيها .. يزيدها فتنة إلى فتنتها .

المحطة قريبة من دارها ، الأتوبيس القادم يتوقف لحظات ، تصعد في تــؤدة ، تحشر جسدها،كيانها،كل تفكيرها وتأخذ جانبا ممسكة بظهر كرسي .. خشــية أن تفقد اتزانها ما زال شوقي جالسا وبيده سيجارته يتوهج لظاها مع قبلة مــن فمه ، وكأن الحياة تدب في أوصالها،الازدحام شديد،والأيدي المستسلمة تنعقد على أنبوب طولي أعلى من هامات الجميع ، غابة مــن الألــوان المتشــابكة المتداخلة ، الشوارع الممتدة والشوارع الملتوية ، ما زال الازدحــام يتحكــم حتى في مسارات الهواء النافذ مع حركة الأتوبيس لينساب الشــال جانبــا ، يلامس سيجارة طائشة تشق طريقها في جدار الشال ، منشار ناري ينحــت طريقه بهدوء وصمت شديدين ، يقترب الأتوبيس من المحطة ، أفرغ حملا ثقيلا ، نظر شوقي بطرف عينيه على أثر فجوة بدت بينه وبين صاحبــة الشــال ، ويروعه ما رأى ثقبا فاغرا فاه.. أقصد عشرة أفواه مجتمعــة ، غضــب لهــا وغضب عليه ، ولعن سيجارته.. قذفها من يده داسها بكل ثقله .. هبط عنــد أول محطة قادمة ليكمل الطريق مع سيجارة أخرى وربما يبحث عن شال أخر

.. تمت ..

البداية

خرجت لا ألوي على شئ ، وضعت سلسلة المفـــاتيح في جيـــب بنطالي الأيمن ، ساقي تسرعان إلى المسجد بدأ الشفق في الإفول ، ذكرني بشيئ يختلج بصدري احمراره اصراره على التواجد ، نضوجه المستمر المستعر المتزايد ، يلهب جانب السماء يبعثر سيوفه المتواضعة في غمد السماء ، أقف أمامـــه عاجزاً من أطفاء لهبه في صدري أو تجاوز احمراره على خديها عندما كنا نصعد قبل الغروب بقليل أعلى الدار حيث تطل عليه كما يطل علينا رغماً عنا .شيئٌ ما يجذبني نحو غاية ، شئٌ ما يجذبني لتجاوز كل الغايات ، أستقل سيارة تعـــبر بي حدود التوقف والانهزام ، لا أحب العبث بذاتي ، ولا أرغـــب في محاكـــاة الغير ، أحاول أن أتلمس طريقي بهدوء أهبط من السيارة ، أعبر الطريق غربـاً ، عادة أخذتها على نفسي منذ عامين تقريباً . رأيتها متقدمـــة في دراســـتها ، عبرت عجزها وضعفها ، تجلس إلى مكتب متواضع جاذبة مقعدها المتحـــرك إليه بشدة ، تقدمت إليها وفي يدي أوراق مبعثرة .. أين الخزانة ؟

طرحت عليها التحية ، أراها تبتسم وترد التحية كاملة ، حســـبتها تتهكم ، نظرت إليها نظرة فاحصة ، ابتسامتها العريضة لم تغـــادر شـــفتيها ، وجهها متهلل ، ابتدرتني قائلة :

تفضل يا استاذي .. أي خدمة !

زميلاتها تسترقن النظر والسمع معاً ، قطعت عليهن فضولهـــن ، قدمتني لهن ، أستاذي !، انفرجت أساريري رمقتها جيداً ورمقتهن جملة واحدة ، لم يعرن جمالهن شئ ولم ألحظ فيهن أجمل منها ، شعرت كأني أحلـــق فـــوق الجميع ، أتنفس الصعداء ، رأيتها تســـمو بنفسها بعزتها ، بكبريائها تجتاز كـل ماضيها .

أتذكر الحروف الهجائية باللغة الإنجليزية ،

ما زلن يثرثرن والكل يرمقني ، وما زالت أوراقي مبعثرة في يدي ، إنه شاب ؟

نعم لكنه أستاذي

الشعر الأبيض يداعب ناصيته نعم . أنه أستاذي هندامه ... نعم ونعم هكـــذا كل أساتذتي .

أصل إلى باب منزلها رقم ١٥٠ ... أطرق الجرس ثــلاث طرقــات خفيفات ، رائحة الياسمين تملأ صدري ، أســـمع والـــدتها تنـــادي مـــن جـــوف بعيد " اتفضل " أسير الأمتار الثلاثين يســـتقبلني شـــذى الزيتـــون والليمون ، أدلف إلى حجرة الجلوس ، أضع نفسي على كرسي معدني مبطـــن بالأسفنج والجلد الأسود ، مساء الخير : يا أستاذ أرد التحية ، افتح كراســـتها ، أنظر إليها وأرى مستقبلها كله أمامي . نقرأ الدرس الأخير وانطلق .

.. تمت ..

فتى الفتيـــان

لم يكن عبثاً على صاحب الزند الفتى أن يتجرع هزيمته ، ويبتلع نكسته ، هنـاك على الضفة الغربية أرابض لا حيلة إلا في مناوشة ، ولا راحة في عمل دؤوب بـدأ في أول يوليو الصمود ، حشر نفسه وكيانه في كتائب التحدي ، أصر إصرار الواثـق بربه ، العارف حدوده والمتطلع إليه في شغف دائب . سنوات الكلية الحربية قليلـة ، العمل المتواصل عبر بنا حدود الزمن ، جعل فينا أملاً فتياً ، ورغبةً ملحةً في انطلاقـة جديدة ، ذكرتني حطين وعين جالوت ، والفاتح الأعظم ، شواهد نصـر تقـترب ورجال يعملون في كبت وصمت شديدين ، ما زال الغضب يتصاعد في أجسـامهم عبرت عنه حركات أقدامهم ، وامتداد قاماتهم ، وانتفاخ أوداجهم بريح الغضـب المكبوت ، وصرخات الجد ، ونبرات جاشت لها جيوش المدن ، حجـافل الرجـال والشباب والصبية والبنات والأمهات تصاعدت واستولت على كل كيان ، وأخذت بكل لب ، ما برحت عيوننا تنادي وتناجي ، وما فتأت سواعد الرجال قابضة علـى زناد بناء وزناد خير وزناد حياة أبدية .

لم يكن غريباً علي وأنا الذي عبرت كثبان الوطن أن أعود ثانية أحمل البندقيـة والماء والزاد والخضرة . لم يكن غريباً علي أن أمهد الطرق وأشق قنـوات أرضيـة وفضائية تجوب الصحراء والهواء ، وتعبر كل حدود الانهزام إلى حيث نلتقي علـى الضفة الشرقية للقناة ، وحدودنا الشرقية عند رفح .

فتى " الفتوة " جاوز عمره الآن سنتين تخرج في الكلية الحربية ، أصبح جنديـاً يشار إليه بالبنان ، نفس البنان الذي عانى الإنكسار ، البنان الذي كـاد يشـيخ ، البنان الآن فتي ، يلفظ العرق ويلفظ الذل ويستفيق ، يقف على الضفة الغربيـة ، ويشم رائحة الوطن يكاد أن يجرف السهل والوادي ويجرف التـلال والكثبـان ، ويجرف الماء الجوفي ، يقتلع كل ما هو غريب يدنس الوطن لتهب عليه رياح جديـدة وأرواح جديدة وقلوب جديدة اعتركتها سنوات ست ، ما بين صمت حذر ونبـض عارم ، ومجازفات خارقات ، واعتراض وسياسات وتحديات سنوات الصمت الآن

قد اكتظت وكل الزبد يعلو السيل ، كادت الأفئدة تجاوز الحناجر .

الساعة الآن الثانية ظهراً لن تعود الساعة للوراء أبداً . الزمن – الآن – يتضور جوعاً ، وأسود على أهبة الانطلاق ، هم جوعى ، هم عطشى الزاد الوطن ، المـــاء الوطن والوليمة على الضفة الشرقية أشتم رائحتها منذ ست سنوات غاضبات .

ريح الغضب الزاحف أعلى صفحات الماء ، اتجاه المد للمـــرة الأولى في اتجـــاه واحد ، كنت أخاله ينفرج عن ضفتين ، حتى المد حدد اتجهه ، مـــد مـــائي ومـــد مطاطي ومد بشري تتعلق زوحه وفؤاده بنسمة جارفة ، ورياح حبلى بالماء ، يتساقط عليها المطر برداً وسلاماً ، تزامن صيحات تكبير لا ينقطع ، يردد صداها الســـهل و الجبل .

ضراوة النيران تلهب كل ذي لب ، وبسالة الرجال تشحذ الهمم ما غاب عنهم ذكر الله ، وما غابت عنهم رائحة الجنة . أبشر يا فتى الفتيان ، لقد أذيع البيـــان ، وانحسرت الجحافل ، أفطر الآن ، أرتوي من الماء الطهور على أرض سيناء اصلـــي وأذكر قبلتي الأولى وأتقدم . ما راعني الدمار ، ما أجفلتني أصوات المدافع وطلقـات البارود وأزيز الطائرات ووحشة الصحراء .

أي رياض أنت يا سيناء الروح أرتع فيها بلا خوف وبلا وجـــل ؟ وأي بطـــل وشهيد جاب ثراك وجبل بدمه ذرات ترابك وعرق جهادك ؟

مازال فتى الفتيان قابضاً على رايته ، جاثماً على أديم آلف الشهداء ، أيديـــهم ممتدة تطاول السماء ، تمسك بالراية في خفاء وصفاء .

.. تمت ..

الجذع الخرب

هبت الزوجة من مرقدها ، تغالب نعاسها ، تتفقد أبناءها الصغـار ، وقفت على باب غرفتها تدعوهم بأسمائهم الواحد تلو الآخر ، ولكن ما مـن مجيب !

ضحكة فاجرة انفلتت عنوة من فيه ثمل وجسد متعجـرف بـالٍ ، كأنها تقول : لا يوجد في البيت أحد سوى أنا .. وأنت .

اتجهت الزوجة إلى زوجها تنظره بنظرة فاحصة من أخمص قدميـه إلى قمة رأسه المدسوس بين ركبتيه منكباً على شراب عفنٍ في كومة أشبه بمتـاع بالٍ ، لا طائل من ورائه ، انحرفت عنه نحو نافذة متهالكـة تنظـر خلالهـا ، متلهفة على صوت قد يتبادر إلى سمعها .. ولكن لا شئ جديد .

أبناء في بكرة غضة ناضرة ، يلوكون الحياة بأنامل لا تقوى علـى عمل يرهقهم نظير أجر زهيد .. مختطف .

الأب في انتظار عودتهم ببقايا أجرهم الأسبوعي .

والأم في انتظار عودتهم ، تتقبل منهم لقيمات غموسة بعرق لا حموضة فيـه ولا ملح .. يقبل كل منهم يضع في يد أبيه خلاصة سبعة أيام دأبـاً ، وفي حجـر أمهم فتات لطعام .. أبناء .. لا يكفي جميعهم أيام من أسبوع قادم .

يخرج الأب من بيته على عجل ، يقترب من حانـة ، يدخلـها ، يناوش النادل ، يقرب إليه لفافة وكيس صغير ، يلتقط الجميـع وينصـرف مسـرعاً ،

الأبناء مازالوا بكراً في نضجهم ، الأم الحانية تلثم وجناهم في شفقة عارمـة ، وخوف من غدٍ أليم ، لا خير في رشفة ، لا خير في شهقة مـن سـم أبيـض مدسوس في أنف مغموس باللذة .. بالفقر بالمرض .. بالضياع

الأم تقف منهكة القوى ، تنظر أبناءها وهم ينظرون ، الحـــــروف تتســـاقط من فمها ، تتبعثر ، يصل إحداها إلى أكـــبرهم ... آه ... يغمـــض عينيه ،

ينتصب واقفاً ، يربت على ظهرها ، يذكرها بحديث جدته له صغيراً عن قصــة قديمة .. لأم وأبناءٍ وأبٍ فاجرٍ كجذع خرب .

.. تمت ..

شئ من الأرض

لحظة بث الروح في تلك القطعة المعدنية المطموسة المعـــالم المجهولـــة الهوية ، حين التقطتها أناملي ، تذكرت يومها قصة علاء الديــــن ومصباحـــه العجيب ، أخذت أفرك تلك القطعة الدائرية ، ربما استدل بعد جلاء عـــدوان الصدأ على براثنها ، وكلما زادت رؤيتي لتقاســـيمها وتعرجاتهـــا ، ازدادت عيناي بريقاً وتوهجاً .

أنامل صغيرة لا تتجاوز الخامسة ، ربما لا تقوي على كشف ســـرها والبوح بمكنون ذاتها ، انكفأت أحسى الرمل عليها حذراً وأزيـــد الفـــرك ، انكببت عليها بكلتا يدي ، جثمت على ركبتي العاريتين ، لا يعيرني اتســـاخها ، فقليل من الماء يزيل ما علق بهما من رمل وطين ، لا أعبأ بما سوف ينالني مـن أمي إن هي وجدتني على تلك الحالة ، مازلت منكباً همماً ، أغمـــس القطـــع المعدنية بلعابي ، وتارة ألوكها برمل الطريق ، وتارة أحملها بين راحتي ، فتسرى رعشة هادئة كمجال مغناطيسي بين قطبين مختلفين ، وأخفي فرحة عارمة بـــين ضلوعي ، أكاد أن أصرح بها ، أصرخ بملء فمي .. أغيثوني .. وجدتهـــا ، لم يسعفنى صوتي ، ولم يخالطني أدنى شك في أنني الآمر الناهي حـــتى الأن فـــإذا انفلت لساني فربما يسلب مني أو تغتصب فرحتي رغماً عنى ، أقسم أنني أكـــاد الأن أراها أتلمس دفء معدنها بعد أن جاوزت الثلاثين .

أي معدن أنت ؟! مصقولة كفتاة برية شاردة المعـــاني والملامـــح ، خجلة تستحى ، تومض و تختفي ، يزداد معدل الفرك ،وتزداد أناملى حـــدة وصلابة كأعواد ذرة رقيقة جافة ، رغم ذلك لم أعبأ ولم يدب اليأس إلى قلبي ، صدري يعتصر ، وثقل رأسى كله يعتصر رغم دقته وخفة وزنه ، إلا أنه يبـــث الروح إلى ذراعي كله فيضاعف الاعتصار حدة وشراسة ، لكن القطعة

المعدنية أبت مجرد الاستسلام وكشف دلالات معرفة أو

افصاح بأقل

القليل كظمأ على بئر ماء ليس به سلماً أو دلو سقاية أو حتى حبل يصل به إلى قرار.

أى مصير لك أيتها العاصية المستعصية ، سوى بائع ضعيف البصر والبصيرة ، يتحسس القرش أو أكثر أو أقل يتلمسها ولا يكاد يوقن بموجبات صلاحها ، يسيل إليها لعابه فيدفع إليك بما تشتهى وبأقل قيمة ممكنة ، عند ذلك لمعت كل الحيل فى ذاكرتى وأفلحت فى الخلاص منها .

منذ ذلك الحين خشيت الاقتراب من هذا الدكان ، وخشيت الاقتراب من الشارع كله ، أى قدر قد يجمعني بصاحب الدكان مرة أخري ، وقد رحلت عن البلدة كلها ، وأى نعمة نسيان أحاطت بى ، ولكنى على موعد مع القدر.

أصبحت أمتلك مفردات العيش الحسن ، وبعد أكثر من ربع قرن من الزمان ، يلاحقني طيف ذلك البائع الواقف الآن بجانبي ، في صف واحد ومسجد واحد ، وقبلة واحدة ، وقطعة معدنية تتقافز ذكرياتها على سجاد المسجد ، وتراب الطريق ، وقطعة حلوى مازال مذاقها على طرف لساني ، ومرارتها تهز كياني ، أقسم إن أصاب الأمام أصبت ، وإن أخطأ فلا حيلة لى في رده أو إصلاح ما فسد منه ، سلمت وبادرته قائلاً : إنك لاتعرفني ولكن مدين لك بقرش صاغ أحمر داكن ، ابتسم الرجل وقال :

أسامحك فيه ، تفردت مشاعري واسترجعت ذكرياتي ولكن لسان حاله ينطق بما لايحتاج أي تفسير أو بيان ، قايضته على ماعندى ، وقايضني بابتسامة أكثر

انفراجاً وقال : كيف تشاء ؟! قلت : أيكفي الآن مائة قرش بدلاً منه ، قـال
كثير والحمد الله ، دفعت إليه بجنيه ورقي ، تحريت أن يكون جديداً لا يشوبه
طمس أو مخمصة ، وخرجت من المسجد طفلاً جديداً .. لا أنظر إلى أسـفل
ولا ألتقط شئ من الأرض .

.. تمت ..

أسياد ... أحياء وأموات

جميل أن أقف أعتاب طفولتي والنهار صحو دائم ، والشمس شارعة بسيوفها تنخر السقف الطيني والجدران فتلهبها ، وتمضي راحلة نحو الرمال الصفراء فتلهبها ، إلى الجذور فتلهبها تمضي إلى الجباه فيتفصد منها العرق ، تغمر المدينة الساكنة في هدوء فتحتمي وتنحني غرباً .

يومها آخذت أغازل نفسي صغيراً ، أصالة ملامحي عذوبة صوتي ، افتراشي الحصير البارد ، لحن بعيد لموال واحد ، لمساكن متقاربة متشابهة من طين سيل قديم ، جبلته قدمان عاريتان حتى الركبتين .

جلس أبي إلى مذياع ، الأعصاب مشدودة متوترة ، مجامع السمع يعكر صفوها من حين إلى آخر جلبة متعمدة لطلقات نارية ، أتساءل صغيراً ؟ ! " يلاطفني أخي بيطخوا الكلب .... استخبئ " .

الصمت الحذر يخيم على المدينة ، على الضواحي ، يمتد إلى كل بيت . ، منذ زمن لم أسمع أغنية تتردد ، منذ زمن الترنيمات مترهلة ، الموسيقات متحجرة ، نبرات صوت النساء والرجال أخالها متشابهة ، تجمعت كلها في صوت واحد ، في جسد واحد ونفوس متعددة .

أتفرس وجه أبي ، عزيمة ، صرامة ، ترنيمة واحدة ، النضال .. النضال ، الجهاد .. الجهاد ..ما زال أبي يحتضن المذياع ، بصخب ، وأبنائه ، يخشى انفلات الكلام القليل من شدقي المذياع .

المساء يقترب وبزة عسكرية تجمعت بالكاد ملامحها ، الآن استرجع لونها ، استجمع عظمتها ، كبرياءها ، عملاق أنت أبي تحمل بندقية الحرس الوطني ، تقف على باب الدار ، وطن صغير يعتصره الرعب ، وطلقات نارية نزمجر في سمائنا ، بزة الفتوة الرمادية أساورها مطوية على زند فتى أراها جلبة ، قزم بين عملاقين .

الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ الصباح عتم ، طائرات قاتمة اللون اخترقت مسلمعي ، احتلت جوانب فكري ، عبرت بدمي ودمعي ، عضضت على لساني ، أكتم

صرختي وحزني ، الدخان يتصاعد جنوباً .. المطار يحترق ، الدخان يتصاعد شـــرقاً الشكنات تحترق ، الدخان يتصاعد شمالاً محطة السكة الحديد تحترق ، أغصان غضنه من جميزة وحشية تترهل بجوار جذعها وبقايا تحترق .

ما زال المذياع يصيح ، النداءات تهلل ، الناس يتصايحون ، يهرولون ، الحـــرب الحرب . قفزت أمي إلي حجر الدار ، تنظر السماء !!يا رب !! جديدة لغة الحرب ، جديدة لغة النصر ، كلمات الدعاء قصيرة واعية ، قصر قامتي ، أجـــبرت علـــى وعيها .. الآن انتشرنا جميعاً انتشار الهشيم ، ننظر الســـماء والدخـــان والصـــراخ والرصاص باب الدار ، ممنوع ، الخروج ممنوع ، الشارع ممنـــوع ، تنـــادي أمـــي وتحصينا عدداً .

الخندق ما زالت الرطوبة تبلل ثراه ، جب غطاؤه بقايا أغصان الجميزة الخضراء ، وصاج معدني قديم ، حوله أجولة مليئة بالرمل المتروح حديثاً .

الطائرات المعادية في سمائنا صالت وجالت ، صوت مدوي !! طائرة تحـــترق !! الرادار بالمرصد .

احتدم الصراع ، الرعب ينتشر في كل مكان ، منشورات يحملـــها الهـــواء ، إنذارات يحملها الهواء ، الهواء مصدر رعب !! بالنهار متسع ، على أبواب المدرسـة الثانوية العسكرية بوسط المدينة ، شباب الفتوة ، شباب الجامعات بالداخل مخـــزن السلاح ، بنادق ماركة حكيم ، بنادق ٣٠٣ ليفيلد ، بنادق آلية ونصف آليـــة ، أسماء المتطوعين على صحائف النصر أو الشهادة ، نقشوها بدمائهم تركوا بطاقـــاقم الشخصية ، كونوا جماعات للمقاومة الشعبية ، انتشروا إلى المداخل الرئيسية ، محطة الأبطال ، مسجد النصر ، طريق المطار ، قلعة العريش ، تبت بحري بوسط المدينة .

ساعات الليل تركض سريعاً ، ساعات الليل حركة دائمة ، الجنود يلتحقـــون بوحداتهم الخلفية ، الشعب يتحصن بالمنازل ، الشباب يغلق مداخل المدينة بحـــزام بشري .

الأنباء متواترة ، أنباء القدس الشريف .. حزينة ، أنباء غزة .. حزينة ، أنباء خان يونس ورفح .. حزينة ، أنباء العريش ما زالت صامدة .

اليوم التاسع من يونيو ١٩٦٧ حاول العدو اقتحام المدينة من جميع مداخلها ، عزل الأهالي في بيوتهم ، أنفاس الشباب لاهثة متحفزة ، فئة قليلة ، الفئتان غير متكافئتين .

الطائرات المغيرة تحصد الفلول العائدة غرباً ، حامية الجنوب الغربي للمدينة الصغيرة ، رادار وثلاث مدافع مضادة للطائرات ، لن يهدأ العدو بقصف ، دار الرادار دورة كاملة ، أستقبل الشرق يمسحه من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب ، احتضن الجنود مقابض الإطلاق وأطاحوا بكل طائرة معادية ، شدوا وثاقهم بالمصيص ، تعاهدوا على النصر أو الشهادة .

اليوم السماء لنا ، اليوم الأرض محل نزاع ، كر .. وفر ، حصاد بشري وحصاد فولاذي ، وثلة مجاهدة صابرة مثابرة ، الهجوم الآن مباغت ، أربع طائرات معادية ، الهجوم مكثف ، حملوا عليهم حمل الساقية لمائها ، ماء النار والغضب ، صهر الحديد وما زالت بقايا سواعدهم على أجهزة الإطلاق ، ماتت زغاريد النار .. سقط الجنوب .

الحصار شديد ، تقدمت قوة مدرعة معادية على طريق المطار ، وجندي رابض على مدفع عيار (ب - ١٠) عيناه جاحظتان تلهبهما شمس الضحى ، المدفع في وضع استعداد ، النار تنطلق ، مدرعة تحترق وثانية وثالثة ، القوة تتراجع ، اليوم السماء لهم ، اليوم الأرض محل نزاع ، طائرة لم تمهله أن يلتقط أنفاسه صبت عليه جم غضبها ، انصهر الجسد بالحديد ، الطريق سقط .

العدو يتقدم على محور أخر غرباً ، الطريق أمامه ممتد ، مخازن السلاح ما زالت عامرة ، لن يهنأ بها ، السلاح له ثمن ، الروح لها أجل ، العدو يتقدم نحو محطة الأبطال ، مخازن السلاح تعبر عن جام غضبها تنقض نيرانها على مقدمة القوة تمزقها

، التراجع سريع ، التقدم أسرع و أشرس ، المقاومة يتضاءل أفرادها ، النار المضادة غير كافية ، محطة الأبطال سقطت والشرق كله .

يتقدم ويحكم حصاره على ثلاثة محاور ، مازالت الأنفاس تتشبث بالأرض ، عطشى لجرعة نصر ، ومدرعة تدك المدينة الحالمة منذ زمن ، تحتل ربوة عالية بجوار قلعة العريش ، أخذ أفراد المقاومة في مناوشتها ، المدرعة تتقدم شرقاً ، تتابع تحركاتهم ، حكمدار الدبابة لا يجرؤ على الظهور ، قائد الدبابة يحاول إدارة البرج للخلف ، قفز شاب عالج فتحة البرج ، ألقى قنبلة يدوية بداخلها عاجلته طلقة نارية انفجرت الدبابة وعليها شهيد .

الحصار شديد ، السماء هدأت والأرض استكانت ، ابتلعت أبطالها وغاض نصرها وأرواح تتلهف للحياة تهتف بالشهادة رابضة على مدفع ماكينة ، وبضع رشاشات خفيفة ، ميدان المالح فسيح على جانبه الغربي تبة بحري " بيدي لا بيد عمرو " قبض محمد المصري على جهاز الإطلاق ، عربات نصف جنزير وعربات جيب ما هذا ؟! رحلة صيد بجوف المدينة الصيد ثمين ، يتصايحون يقهقهون ، المدفع ينطلق ، الرشاشات تنطلق ، الجثة قريبة أكاد أشم رائحتها ، رغم البارود ، صياح ، عويل ، نواح ، لن تهنأ أبداً ، لن أستكين ، الدم يسيل ، الميدان الفسيح يضج ، الأرض تلفظ الدم .. دم نجس ، هرج مرج ، فر وكر الشتات تجمع ، تقدم جديد ودماء جديدة ، القائد .. لا أستطيع مصر كلها هنا اليوم .. لا أستطيع الموت كله هنا .. طائرات مروحية غادية ، المقاومة شديدة ، المدفع يحترق ، الرشاشات تناثرت ، كل زناد يحمل سبابة ، النار انطفأ لظاها ، قوة متقدمة رابضة عن بعد ، أحياء لا نقترب ، أموات .. لا نقترب صعد القائد عربته الجيب وتقدم بحذر ، التبة هادئة ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، بقايا سواعد ، يتفرس القائد التبة جيداً ، يستدير ويلقي نظرة على عشرات الجنود والعربات المحترقة يدور ببصره حوله ، يتفرس وجوه مساعديه ، يلبس خوذته ويشد قامته ويؤدي التحية ويتبعه مرافقيه

– تمت –

النظرة الأخيرة

يخط المشيب علامات واضحة على جبين سالم ، ذاك الأعرابي الـذي عشق البادية فكانت له قلباً ينبض ، وقالباً يحتسى منه ذاده ومائه ، عكر كـان أو مخلوطاً بالطين الطفلي المجلوب من طبقات الجبال المحيطة به من كل جانب.

يجلس فى ظل خيمته القابعة على ربوة رملية تطل على وادي فسـيح كذكرياته منذ طفولته التي يراها ويلمسها فى نظرة فاحصة لكفين تشققا مـن عناء العمل الدؤب منذ انبلاج الصبح حتي الغسق ، ترعي الأغنام حولـه فى انسجام تام تلتقط البقايا الجافة من التبر الأصفر المتروك بعد موسـم حصـاد سعيد ، تحاوره تلك العنيزات نتاج العام ، تنظر إليه عاتبة ، تناوشه تحدق بـه عن قرب ، فى انتظار كسرة خبز جافة يقذفها إليها من آن إلى آخر ، أو بقايـا بطيخة جبلية جفتها المياه فلم يزدد حجمهـا عن حجم رأسـه العـارية في ظل خيمته المنسوجة بصبر السنين ، لصوف نعاجه وخرافه وماعزه ، جمعتـها يدان قويتان منذ سنين مضت ونسجتها زوجتـه وأم أحفـاده ، مغموسـة ببصمات أصابع تثلمت فتعلمت ، نسجت ، استظلت ، حمدت ربها وقنعـت بعيشها .

أخذ يراقب الطيور المهاجرة ، ينظر الأفق البعيد والتلال المجـاورة ، كان بصره قديماً يرى الجبال المحيطة عن بعد ، يرى قباب الثلج الأبيض المعقود على قمم جبال سيناء بعد يوم مطير يصحبه صحو مؤقت ، يتفـاءل بالخـير القادم ، أما الآن فقد خانه بصره ، فترك للبصيرة العنان فى تحديـد مواقـف كثيرة لا يقوى على تحملها اليوم .

الأحفاد يخرجون عند انبلاج الصبح ، يتصايحون .. جدى .. جدى .. يقبلـون يده ، يجلسون حوله فى انتظار كسرة خبز طازجة وكوب لبن دافئ

زمن ، يمسك الحفيد اللم يمض على حلبه سوى بضع دقائق معـــــدودات ، ليس لها حســاب منــذ كبر "حسن " عصا صغيرة يحرك بها الجمر حــول "لبة" غارقة فى الجمر ، يحاول استعجال نضجها ، يزيح الجمر جانباً ويمســك بأنامل لم تتعود الخوف ، يخطف قطعة تلهب كيانه وتجرى ريقه ، يتقاذفها مـن يد إلى أخرى ، يود أن يمسكها بمريوله المدرسى الجديد ولكن يؤثر لسعها عـن اتساخ مريوله ، ينظر إليه جده .. يرقبه .. تلتقى العيون ، ينفض عن الكسـوة ترابها ، يفتح كف جده ، يدوسها بين أصابعه العجفاء ، يمسح الجد على رأسه ، ويناولها لأخويه الصغيرين ويلتقط أخرى .

تصرخ الأم .. هيا .. هيا ميعاد المدرسة ، الطريق طويل ، يلتحـف كل منهم شنطة بلاستيكية زاهيـة يشـدها إلى ظـهره ويمسـك بحذائـه الجديد في يده حتي يعبر الوادي ، هكذا كانت الوصية .

يدس شيخنا بكرجه النحاسى العتيق فى بقايا الجمر ، يصنع القـهوة ، ينظـر نضجها، تشاركه أم حسن احتساء القهوة ، تنظر إليه وينظر إليها ويفترشـا الطريق حثيثاً لا يرتد إليهم الطرف إلا سفح الجبل عسى أن تقع عيونهم علـى أثر للابن الغائب والوالد المسافر والزوج البعيد منذ زمن ، يطمئنها ، يـهدئ من روعها ، يحاكي فضولها ، يبادرها قائلاً : " قديماً كنا نخرج استعداد للشـتاء ، قديماً كنا نحرث الأرض مع أول قطرة ماء ، قديماً كنا لا نعود إلا إذا بـزغ النبت واخضرت الأرض.. لنعود بعدها للحصاد استقبلت الأم كلام الشـيخ الهرم بصبر يلاءم الحياة ، الأبناء فى المدرسة والجد لايقوى على حراك كثـير ، الزوج الحافظ للأرض ، الحافظ للعرض يحلم مع مطلع كل فجر غيثاً يبعـث فيهم أملاً للحياة .

الشتاء يقترب ، أشعر بلسع البرد وقت الظهيرة ، الغيوم تملأ السماء ، يحدق الشيخ فى السماء ، يتحسس اتجاه الرياح مع حركة دخان الموقد الطين الذي أمامه ، ينادي : يأم حسن تلمسي خيمتك ، أحس أن الرياح تحمل غيثاً إن شاء الله . احفظي حطباً للتدفئة بعيداً عن زفرات المطر ، حصنى خيمتك ، اجلبى ما يكفى من الماء ، احفظي بقايا الدقيق .. وصايا قبل الشتاء .

وما كاد الأبناء يعودون أدراجهم من المدرسة حتي كشرت السماء عن أنيابها، أخذت الرياح تناوش تلك الخيمة الرابضة على كثيبها ، تحمل معها زفرات متقطعات من الخير المنتظر ، يرفع الشيخ رأسه إلى السماء ، وترفع الأم أكف الضراعة لله أن يكلل تعب زوجها خيراً يعود عليهم جميعاً لعام مقبل بالخير الوفير ، الرياح تشتد والمطر ينهمر ، والزوج يحرث الأرض فى حضن الجبل والوادي الممتد يعج بالماء الوفير ، الجبال كستها الثلوج ، أنباء المدينة تحذر من سيل قادم .

الشيخ يحوم حول خيمته ، يراقب أحفاده ، وصيرة مصنوعة بالجريد على شكل نصف دائرة تحتمي بها نعاجه وخرافه وماعزه ، وقف يبتهل يحمد الله ، مازال المطر .. لاينقطع ، الرعد يشتد المساء يحل ومازال المطر له صولة ، الماء يغطى الأرض العطشى يرويها ويفيض عن حاجتها ، الأن الرعب يحل على أهل الخيمة وما يجاورها ، ليلة ماطرة ، لم أر مثلها منذ سنوات طوال ، أسمع آذان الفجر من مكبرات الصوت فى مسجد القرية المجاورة ، وأسمع صوت غليظ لم تألفه أذني ، وقف يعاند عجزه ، يطل برأسه خارج الخيمة عسى أن يقف على حقيقة هذه الضجة الأخذة فى الازدياد ، ارتعدت فرائصه

خوفاً هذه المرة وليس عجزا ، نادي بصوت لايدري أي قوة حلت به : يأم حسن .. السيل .. السيل .. قفزت من مرقدها فزعة خير يـــاعم ! السيل .. السيل .. ياساتر يارب ، اختطفت ابنيها النائمين وجذبت حسن من جلبابه ، خرجت من خيمتها والشيخ أمامها تسلقوا الكثيب القريب ، تنظـــر خلفها تارة تتذكر ما عساها قد تنساه ، العيون جاحظة ، الصبـــح آخـــذ في الإنبلاج حدود الرؤية رغم ضعفها كافيه للنجاة ، تسلق الكثبان الرملية أمـــر ليس جديد علينا ، كم لهونا عليه ؟ صغاراً وعانينا ارتقائها كباراً . لكـــن الأن لم أشعر بعناء .

جلست بجوار الشيخ الآخذة أنفاسه لهثاً متواصلاً بادرهـــا : أيـــن أولادك الثلاثة ؟ أخذ يضع يده الغارقة بحبات الرمل المبتل علـــى رؤســـهم ، يتحسسها كأنه يحصيهم عددا.

الضجة آخذة فى الإزدياد ، أصبح للرؤية مدى كاف للتعرف علـــى تلك الضجة المعلنة ، السيل عارم يحمل أشجاراً مقتلعـــة دواب .. مـــاعز .. خراف .. أحجار مختلفة أحجامها وربما بشر .

ياساتر .. الماء يرتفع سريعاً .. الماء المندفع المرتفع يقترب من الخيمة يتلع أول أوتادها .. ياساتر وثانى غراسها .. الحقائب المدرســـية ســـابحة ، الماعز والخراف تعاند شامخة ترفع رأسها فوق الماء الجارف ، المرايل الجديدة .. أراها تلطخت بالطين .. تبتعـــــد .. الخيمـــة وكـــل مـــاتملك .. يبتعـــد .

أنفاس لاهثة ، عيون دامعة ، أطفال باكية وشيخ علمته الصحـــراء عنداً وكبرياء،وزوجة متلهفة..وزوج كاد أن يكون فى عداد المفقودين يحتضن الشيخ وزوجته وأبنائه وهم ينظرون جميعاً نظرة أخيرة على كل ما ضاع .

.. تمت ..

" الحصاد مرتان "

الحياة حولي يغمرها السكون ، يتخللها همسات لفيف نخل باسقات وزروع يانعات متفرقات ، الطريق الترابي يتعامد على الطريق المعبد المؤدي إلى المزرعة . جلست أمينة تنبش بأنامل عجفاء حولها في الرمل الذهبي ، كوخ من الصاج تجلس أمامه ، تنظف المكان حوله بقايا من الحطب ، وموقد طيني يذكرنا بتالد تاريخنا ، تضع فيه تلك البقايا ، نيران الموقد ما زالت خافتة ، والمد أمامها في اتساع متواصل ، عنصر الرؤيا لا تشوبه إلا اطلاع متفرقات لسعف متفرد في الشموخ يناوشهاعن بعد . كالعادة ... حمل إليها زوجها بضع تمرات أسقطتها العصافير المتزاحمة حول أسباط النخيل في عليائها ، إنما رسول بشري بحصاد قريب ، وضعت راحتها على بطنها ، تتحسس حملها ، همس إليه..

ووضع حامد تمرات قليلة بجانب الموقد ، يتفرس زوجته ، شحوبها ، امتلاء بطنها ، يتناول كسرة خبز لشعير ، أنها طازجة ، يضع لقمة في فمه وكسرة في فمها ، يتفرس وجهها ... يلوك اللقمة بين فكيه ويدوس راحته براحتها ، يرتشف رشفة كبيرة من كوب شاي أمامه ، ويلوك اللقمة في فمه يبتسم ... وتبتسم ...

بدا عليه شرود واضح أمينة تسأل ... ؟ ! ما زال حامد في شرود عميق وأمينة تنظر وتعيد السؤال يخيم صمت وحامد يبتسم .. قريباً ... نجني البلح ... قريباً إن شاء الله ...

الحصاد ... عيد .... والعيد يوم الحصاد .

الحصاد قريب ، وحامد يصطحب مطلاع ليغني في يد وحملت الأخرى بلطة . أمينة ... مشغولة بإعداد طعامها ، حامد يتقدم .. وأمينة

تلاحقه ، حامد .. ينظر الجيد يتحسس الطيب منه ، وأمينة تجلـــس جـــوار هيشة تحجب عنها الشمس ... تحملق تارة في السماء ... وتارة في زوجـــها المعلق بين السماء ... والأرض ...

حامد ,,, يقطع ,,, أول سباطة ، السباطة تتدلى ... بهدوء نحو الأرض تتابع في فرح وخوف ،.............. السباطة تهوي .. فجأة .. المطلاع ؟؟؟ حـامد ؟؟؟ أمينة تصرخ ... يارب ... حامد يقترب من الأرض .... أمينـــة تصرخ ... يارب .... دبه خفيفة .... حامد مستلقي على الأرض ...... يلتقط أنفاسه ....

أمينة ...... تصرخ .... نظر إليها .... ونظرت إليه ....

يارب .... يارب .... حامد يقترب .... منها ...... أنـــه معافـــا ....

أمينة تبتسم .... الحمد لله

وحامد يبتسم ...... الحمد لله.........

والوليد ...... يصرخ ....

.. تمت ..

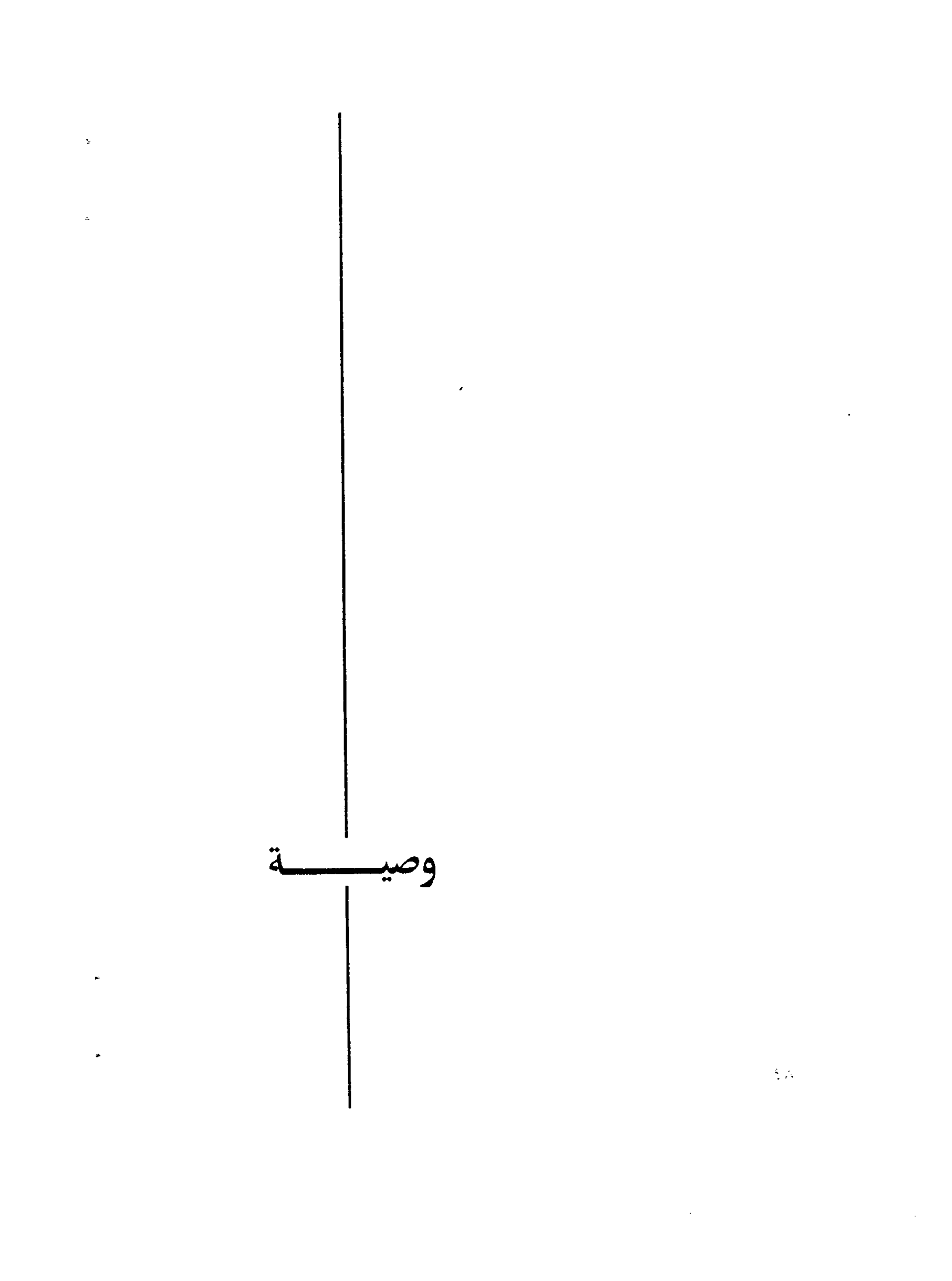
دفء

صعدت السلمات القليلة ، وعبرت دهليز طويل معتم ، رغم النهار والشمس الساطعة في إحدى أيام الخريف ، رغم ذلك كانت لسعة برد تتجول بين ردهات ذلك المبنى الحديث بناه ، العتيقة تصميماته .
الساعة الآن تقارب الواحدة ظهراً ، حيث تتحنى الشمس غرباً تتسلل ثلة من شعاع لتخترق كل الجدران والنوافذ الداكنة لتسقط مباشرة على جانب جدار الردهة البالغة الاستطالة لتكون مثل عين حارسة في وسط هذا الظلام ، حاولت أن التقطها بيساري فرحاً بها ، للمرة الأولى أشعر بحرارتها رغم وجودي في هذا المكان منذ قرابة بضعة أعوام متواليات كموظف إلا أن مثل هذه الحرارة التي اكتسبتها يدي وشعرت بها سرت في أوصالي كما سرت من قبل لمسة حانية في مراحل عمري الأول لتختلج بصدري ، وتسري عبر ساعدي ، تعبر كل أوردتي وشراييني ودمي ، تحتمي بها ، وتندرج تحت سيطرتها وقوة إرادتها ، فلا القلب عنها غافل ولا الذهن عنها شارد ، حرارتها التحفت وجنتاي ، ما تبددت بل انتشت وانتعشت وغافلت كل عمري السابق ، سابقت الزمن وتسابقت مع عمري الأول ، عادت بي أدراجي إلى عهد كل ما يثير الحرارة فيه مباح والإحساس راق متدفق تلقائي ، ليس في حاجة إلى عون حكيم أو مشاهد فيلم على طراز " دش ٩٧ " أو قنوات فضائية لقطاع خاص موجه .

ما زالت يدي تحاول الإمساك بذلك الشعاع الثاقب ، وتلك العين الحارسة ، أغمض عليها كفى تارة فتظهر فوق قبضتي ، أفتح كفى تارة أخرى فيبتسم نوراً وضياءً ، وتسري الحرارة ثانية لتدب في أوصالي كلها ، ضممت أصابع كفي ثانية ، وأحكمت قبضتها ، وغادرت المكان سريعاً حيث مكتبي ،

فتحت الدرج الأوسط وأفرغت ما احتوته قبضتي ، رغم برودة معدنــــه إلا أن يدي ما زالت دافئة ، أغلقت الدرج وشددت المزلاج ربما يأتي يوم أحتــاج فيه إلى شحنة أخرى في فصل مقبل .

.. تمت ..



وصيـــــة

عندما يتسرب الطيف من حدقة الفجر وينغرس سهم الضوء في خيوط الثوب المكتحل الأعين وينبثق الشعاع من جمرة الأفق ليعلن بداية يوم جديد ... تتعطش الأرض بكل ما تحوي وتستجدي الإله في رمق الرزق ... تتهادى عليها قطرات الندى لتكسي النبت والحصى ثم تعتلي الشمس أفق السماء ويستمد الزهر نفحة الحياة فتتفرج أساريره بعبق العطر ليكون رسول محبة وصفاء لكل البشر .

عندها تسرب صوت المؤذن إلى مسامع تلك العجوز القابعة في سريرها الوفير في غرفة مطلة على حديقة واسعة ممتدة عبر الأفق الفسيح لا يقف حد لها سوى تلك الكثبان الجاثمة عن بعد عن قصرها المشيد ... جلست مستندة إلى ظهر سريرها تغالب نعاسها وتتمتم بعبارات غير واضحة يكاد يخالها المرء في هذا الموقف سوى أنها تكرر الأذان حتى انتهى المؤذن فقامت منتصبة مشعلة مصباح غرفتها هامة بالخروج إلى الصلاة ... وما إن انتهت من صلاتها حتى حدثتها نفسها أن توقظ حفيدها الوحيد هذا الغلام الذي بلغ سن الثامنة عشر ... ذهبت لغرفته تتحسس الطريق إليه لتخبره بوجوب صلاة الفجر ... ولكن ما كادت تفتح عليه باب غرفته حتى سمعت تمتموا وصوت يعتريه النعاس معلناً رفضه متحججاً بأنه لم ينم سوى بضع ساعات ......

هكذا كان حال هذا الغلام ... سهر دائم متواصل مع رفاق السوء ... ثم عادت تلك العجوز إلى حجرتها وهي غاضبة تدعو له بالهداية لا سيما أن هذا الغلام وريثها الوحيد في هذه الدنيا بعد أن فارق أبواه الحياة ...... حيث توفى أبوه وهو عائد من سفر طويل إثر حادث تحطم سيارته ووفاة والدته حزناً على أبيه ...... تاركين لهذه العجوز التي قاربت الستين من

عمرها هذا الغلام . فعملت منذ ذلك الحين من أجل مستقبل هـــذا الغـــلام فخطت له مسار حياته الحالية وحياته المستقبلية إلا أنه كان يعلن كل يوم نوعاً جديداً من أنواع التمرد الغث الذي كانت تشفق عليه وعلى نفسها منه

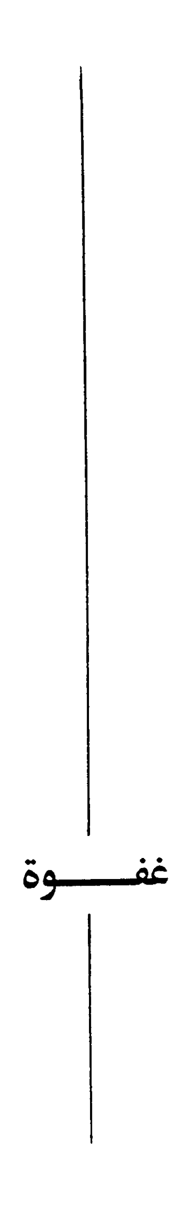
لقد كان صراع طويل المدى بينها وبين هذا الغلام التائـــه بـــين الصـــواب وأشكاله والخطأ بكل أحواله ... بين الصواب الذي كان يتردد على مســـامعه ليل نهار من جدته الحنونة وبين الخطأ بكل أحواله من رفاقه وخاصته ...

يومها دخل عليها حفيدها قائلاً لها في صوت أشبه بالتهكم منه بالاســـتئذان .. أنه يريد أن يستضيف بعض أصدقائه لحفلة عيد ميلاده .. فما كان عليـــها إلا أن تستجيب طواعية له بدلاً من أن يرغمها على الموافقة أو يتجاهلـــها .. وفي هذا هلاك لذاتها وكبريائها وفس مساء اليوم الثاني اجتمع الرفـــاق الغريـــب والقريب واختلط الحابل بالنابل في سهرة اعتراها صخب الآلات الموســـيقية الحديثة والرقصات التي هي أشبه بقفزات القردة إذا ما عكر صفو حياتهـــا ضيف غريب ... تحاملت على نفسها مرددة " آهو يـــوم ويعـــدي .. بخـــيره وبشره " وبدأ رفاقه يقدمون إليه هداياهم التذكارية متمنين له العمر الطويـــل ... إلى أن فرغ الجميع إلا جدته التي تقدمت في خطوات أشبه بـــالعند مـــن الثبات وبصوت جهوري كاد يفوق صوت الموسيقى .. انتبهوا .. تقدمـــت إلى حفيدها .. قدمت هدية تكاد قبضة اليد الواحدة تخفيها .. تعالت الصرخـــات .. نريد أن نراها .. قطع الغلام رباطها وفض غلافها .. فإذا هـــي قـــارورة زجاجية شفافة يظهر داخلها رمل أسود أشبه بالطمي النيلي .. نظر الجميـــع وقد علت عليهم ابتسامة الدهشة .. كأنهم يريدون استفساراً ســـريعاً لهـــذه المفاجأة الغير واردة على أذهانهم جميعاً ... أبتسمت العجوز وقالت .. بصوت

رقيق به دفء لم يستشعره سوى حفيدها .. وقبل أن يفيقوا من هذه يا بـــني هدية جدك لي في عيد زواجنا العشرين وقد كان مريضاً فأراد أن يعطيني شـيئاً مخلداً .. لا ينسى أبداً .. قائلاً هذه القارورة يا زوجتي الغالية جزء صغير مـــن هدية لها بقية .. فسألته .. باقي الهدية ؟ فاصطحبني إلى حديقة المترل وفي ركن بعيد عن الأنظار وقف وجال ببصره حول المكان ... وقال لهـــا في ابتســـامة حنونة .. ما رأيك في هذا المكان .. قصر عظيم وحديقة فسيحة وأشجار يانعة .. أليس هذا بشيء جميل ؟! قالت متعجبة حقيقي أنه مكان رائـــع .. لكـــن خبرني بالله عليك .. لماذا جئت بي إلى هذا المكان ؟

فقال هذه المساحة الضيقة الصغيرة هي قبري بعد موتي .. وهذه القارورة بهـــا بعض تراب من هذا القبر .. أما باقي أرض الحديقة وقصرها وكل ما تحـــوي فهي بقية هديتي لك .. وأنا يا ولدي لا أرى أن جدك أخذ من حطام الدنيـــا إلا هذا المتر الواحد من الأرض .. ومن يومها يا ولدي علمني جدك درســـاً حفظته لك .. وها آنذا أعلمه إياك .. فخذ هديتي هذه من قبري بعد موتي أما باقي أرض الحديقة والقصر فهي ميراثك .. ولا تنسى أن جدك وجدتـــك لم يأخذا من حطام الدنيا .. شئ .. فذهل الحاضرون وعلت علـــى وجوهـــهم لحظات وجوم حادة ... ونظرات شاردة ... وما كان من الغلام إلا أن أحتضن جدته وكأنه يقول لها .... سامحيني ... سامحيني ... سامحيني .

.. تمت ..



غفـــوة

الغرفة فسيحة ... وساعة حائط تدق بانتظام وتؤده ... وجهاز تلفاز رابض أسفل منها ... وكرسي مريح ، جلست مريم مرهقة جداً .
مدت يدها محركة مفتاح تشغيل جهاز التلفاز ... الوقت ما زال مبكراً برغم عناء يوم عمل طويل ... الهدوء جذبها إلى عالم فسيح ... الألوان الصاخبة ... الصورة المتحركة غابت عن شعورها ... أسدلت ستائر النسيان عليها ... الغفوة ما زالت منعقدة على فؤادها .. الزمن .. يمر .. ويمر ..
انتبهت .. انفلتت منها نظرة إلى أعلى .. أبصرت بها حدود الزمن .. انتصبت قائمة .. معلنة بداية رحلة الاستغراق إلى النوم وبحركة لا إرادية وضعت يدها على مفتاح تشغيل التلفاز وأغلقته .. استدارت في حركة رشيقة ناعسة .. إلى ساعة الحائط لتتأكد من حدود الزمن مؤكدة صدق حسها الأول .. وقت النوم قد أزف ... الردهة ممتدة من باب الغرفة متفرعة إلى غرفة نومها ... إلى المطبخ ... دخلته ... وضعت يدها على صمام أمان موقد الغاز ... اطمأنت ورفعت يدها إلى مفتاح الإضاءة ... أغلقته ... ما زال الضوء الخافت من الردهة ينسل شعاع خافت منه إلى حجرة نومها ... تمتمات ... همهمات ... على طرف لسانها ...دهمت المعاني على خاطرها .. جلست على طرف سريرها .. الحديث من طرف خفي ... الوقت يمر تباعا العمر تتخطفه عقارب الساعة ... والصباح ... عمل ... وجهد ... ولقمة عيش ...الوحدة ... الانفراد ... الوحشة قاتلة ...والشبح الغامض ... الفارس المغوار ...الجواد الأبيض الستائر المسدلة .. واليد الحانية .. والفستان الأبيض .. وأنوار العرس.. ونفير الأبواق ... ورنات العيدان ...دقات الطبل وضيوف الحفل ...زائرين حتى انبلج الصبح وانفض العرس والجسد رابض . تمت ..

نظرة واحدة ... تكفي

جابت بناظريها عمرها البعيد والقريب ... ووقفت على أعتاب حاضرها تنظر مستقبلها القريب تحاصرها بعض مشاهد من طفولتها الناعمة وبكارتها الغالية وشبابها المشحون بالألوان والأصباغ ... تحيط بها خطوط الموضة المجنونة وغرائز جمة خلف قضبان الحس والإدراك في عالم يحتويه الوقوف إلى حد السرعة ... والسرعة إلى حد الوقوف في الممنوع .

آه ... وألف آه كل هذه الخواطر مرت أمام ناظريـــها بمجـــرد أن وقفتَ أمام المرآة ... دق جرس الباب .

فأخرجها من عزلتها السابقة لتعيش حاضرها ... وبنظرة فاحصـــة شـــاملة في المرآة غطت قدمها تحسست شعرها اســـتدارت ... ابتســـمت ... خرجـــت الساقط من أعلى واجهة الباب نسمة من غرفتها شدت قامتها ... مدت يدهـــا لتفتح الباب ... اندفع مع الضوء باردة عطرة تسابقت مع الضوء لتصـــــل إلى مراكز الحس في وقت واحد وفي زمن دقيق ... اعترضتها ابتســـامة عريضـــة وحياء غير منظور المعنى .... قامة صلبة مشدودة لشاب يبدو عليه مـــن النظرة الأولى درجات التحفظ والرصانة جعلت قدميها غير قـــادرتين علـــى الحركة وعيناها تسمرتا بعينيه .

تخشى أن ينفلت المشهد فتغيب الشمس وتعم النفس ظلمة الأمس ... تخللت أوصالها رعشة عجيبة سرت في دمها ... سريان السحر فانقادت من أول نظرة وأصبحت أسيرة تخونها كل حركاتها وسكناتها وتعيد لها سعادتها الأولى مع حبيبها الغائب ،

تمت ،،

كوب شـــاي

انتهت سميرة من عمل المترل ، يمثل لها الشغل الشاغل والإتاوة اليومية لحياتها بحرارتها وبردها .. دأبت أن تعيش ليلها منفردة وحيدة لا يصاحبها سوى مذياع صغير .. كان بمثابة صديق وفي لأبيها المتوفي ... وهاهي ترث منه أعز صديق لأغلى رفيق في الوجود ... بعد أن دأب وسهر على تربيتها وهي طفلة صغيرة لم تتجاوز الثالثة من عمرها حيث تركتها أمها لعجز أبيها عن تحقيق رغباتها ......

صنعت سميرة لنفسها كوباً من الشاي ... فتحت المذياع ... واسترخت على كرسي أشبه بكرسي البحر ، " حدفت برأسها إلى الخلف واضعة وسادة صغيرة تحتها ...... ووضعت كوب الشاي الساخن بجوارها ... أخذت مسامعها تلتقط برنامجاً ... تلو الأخر ... تحملق تارة في سقف غرفتها وأحياناً ... عبر نوافذ غرفتها كأنها تستجدي عطف الجدران لتروي لها ماجهلت من حياتها السابقة ... وتستعطفها بأن تبعدها عن الآم مستقبلية جديدة ... هنا خفت الضوء في ناظريها ... أطلقت لنفسها العنان ... استرق وحدتها رجل أسمر الملامح فارع الطول عريض المنكبين به من الحنان والتشابه ... لروحانية أبيها ... تعلقت عيناها به لاحقته بنظرات فاحصة جامدة متوترة ...

قفزت إليه ... طوقته بذراعيها ... انسكبت بعض بقايا الشاي على ثيابها .. اخترقته ..

أحست بحرقه على صدرها ... فتحت عينيها ... وجدت كوب الشاي بين يديها .

(تمت)

الحلم الضائع

التقط الصغير ورقة مالية لم يرها من قبل .. لم يعرف لها قيمة حسابية واضحة .. سوى إنها وسيلة للشراء .. التقطها .. وقفز قفزات طفولية ناعمة ، المسافة من الشارع المرصوف .. قريبة .. لا تتعد المائة متر .. جرى بها .. .. نحو أمه .. تارة يقفز .. وتارة يهرول .. يرفع بيده الورقة المالية فوق رأسه نحو السماء .. يمسك بتلابيب جلبابه المخطط .. يصل إليها ينادي .. أماه .. أعطتني هذه .. أماه .. أعطتني هذه .. تنظر إلى يد الصغير ، تجده قابضاً على جنيه .. جديد .. لم تقربه يد !! " يذبح الديك نصله " دفن الصغير رأسه في صدر أمه .. يلهث .. تسأله الأم ..؟ من أعطاك هذا الجنيه ؟ أعطته .. أعطته .. " ست تركب سيارة إلى جوارها ولد صغير مثلي . تقف السيارة على جانب الطريق المعبد .. تسألني .. أين العزبة ؟ أين الطريق المؤدي إلى القرية ؟.. بدأت أنفاس

الصغير .. تهدأ .. اطمأنت الأم عن طيب المصدر .. يا .. الله .. لا يوجد في البيت طعام ولا مال .. سوى هذا الجنيه .. أمسكت الأم .. برأس أبنها " ريقها جف في حلقها " الجوع يعتصر فؤادها .. قالت له : إياك والكذب .. وهي تدري تماماً .. ربما العزبة كلها ليس فيها جنيهاً صحيحاً .. أو على الأقل جنيهاً مثله .. نعم كل الجنيهات الواردة إلى القرية .. جنيهات رثة .. يبللها العرق .. ويكسوها الطين .. قالت : في نفسها ناظرة وحيدها .. وقد دفعت إليه بالجنيه .. خذ هذا .. اذهب به إلى الدكان القريب من الطريق الاسفلتي .. اشتري طعاماً .. وحلوى .. و .. و ..

نظر الصبي إلى أمه .. التقط الجنيه .. وقفل راجعاً أدراجه على نفس الطريق .. لحظات .. كانت فيها الشمس ساطعة .. والسماء صافية .. فجأة عوت الرياح .. اهتزت الأغصان .. تصايحت الدواب فجأة .. اختفت الشمس ..

اشتدت الريح .. تلبدت السماء . بغيوم .. لا أعرفها ..جهلتها سنه الصغيرة .. لم يلتفت إليها .. سوى أنه قابض على المدعو جنيه .. في بطن يده اليمنى .. يا .. الله .. السماء تمطر .. الرعد يصدح ويصرخ .. الماء يجري في قنوات صغيرة الصغير لم يصل بعد إلى الدكان ، أسند الصغير ظهره إلى جذع نخلة بجوار الطريق تقيه المطر . الماء يعلو .. ينحدر من أعلى الطريق .. يمر فوق قدميه العاريتين .. محمل بالطين .. أنه متجه صوب العزبة .. لحظات .. الرعد يشتد وإنفجار مدوي .. فاق صوت الرعد .. ألسنة النار الشارعة نحو السماء .. الماء والنار يلتحمان على مجرى واحد .. يا الله .. قنوات الماء تشتعل .. الماء المشتعل ينحدر نحو القرية .. القرية القابعة منذ زمن بعيد .. في أمان وسلام .. فجأة .. الصراخ يعلو كل بيت .. الماء .. النار .. تسمرت قدما الصغير .. ما زال الجنيه المقبوض عليه في بطن كفه الأيمن .. ألسنة النار.. تغطي منازل القرية .. صراخ الأطفال والنساء .. ولا زال يزلزل كيانه .. أشرعة النار والدخان وجداول الماء الناري .. تقتلع العزبة من جذورها ..السواد يلفها .. والصغير ما زال ينظر إلى الطريق الأسفلتي القريب عن يساره .. والقرية المشتعلة منذ قريب .. عن يمينه .. والسيارة صاحبة الجنيه .. توحل في مجرى الماء الجاري .. سريعاً .. سريعاً .. تحررت قدماه .. جرى نحو الطريق .. يطلب النجاة .. الصراخ يلاحقه والماء يبلل رأسه وجلبابه .. الرياح تلفح جسده النحيل .. تارة تلكزه فيتعثر في الطين السائب .. المشبع بالماء .. وما زال الجنيه المقبوض عليه في بطن كفه الصغيرة . جلس الصغير على حافة الطريق الأسفلتي العاري من المارة .. من السيارات .. منذ قريب كان مزدحماً .. منذ قريب .. كان جافاً .. منذ قريب كان

الطريق موصول .. والقرية رابضة .. مطمئنة .. لكن الأن .. الطريق المقطـوع .. والسيل موصول .. والقرية السوداء غارقة في ماء النار والجنيــــه اليتيــم مازال مقبوضاً عليه في كف الصغير الأيمن .

.. تمت ..

أم الغيث

مفردة جديدة وقلوب حائرة ، ترنيمة سادت منذ القـــدم ، جـــاوزت حـــد المألوف ، تعثرت على أعتابها آلاف الركاب ، فكانت بمثابة حقيقـــة خيـــال وخيال يجاوز حقيقة .

أي شئ أقامر به الأن ، وأي يعبث بمفـــردات الـــتراث وعنـــاصر الطبيعة وحركة الحياة الرتيبة ،

معلقة الأبصار ، جاحظة العيون تذروا الرمل وتحصد الأرض الفساد . شـــائعة يتعلق بها جيل ينكر الفضل ويتشبث بالسراب .

هناك على ثراها جلسوا ، هناك ركعوا وسجدوا وهناك جعلوا لله شريك .

" ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل " ماذا يجديك يـــا صاح ؟ أم الغيث أم أبو الغيث !!

شجرة في فلاة ، نبت رباني ، وصلاة عابد ناسك ألهبته الشمس فجلس إليـــها تعلقت روحه بالفروع وتشبثت الجسد بالجذور ، فسمت واستكان .

دراويش استحلوا خيمته ، استباحوا حرمته ، جـــاوزا المـــألوف وتمســـكوا بالمتلوف ، عبروا بسراياهم كثبان الرمل ، استجمعوا الهمم والشتات عرضـــوا الدنيا على نفوسهم فطابت وأعرضوا ..

" براءة من الله ورسوله "." إني أتبع ملة إبراهيم "

مخلوق متفرد ، مخلوق ضعيف ، ونفوس اختلط عليها الأمر الكثير .

أم الغيث ، آراك الأن كما أرى الأثل ونبات العادر كلا كما قـــابل للنـــار ، مقبل عليها يوماً لا محالة

.. تمت ..

دائماً ... النتيجة تختلف

قدراً ...

وبدون تدبير أو تكلف ... لمحته ...

وعلى أعتاب فسيحة داخل النادي جلست تستريح ... رفعــت رأســها إلى أعلى كي تستنشق أكبر كم من الهواء .. بدأت الصورة تكبر وتزداد وضوحاً ... دخل نفس القاعة .. رأته جيداً تابعته بطرف خفــي ... شــد انتباهــها استسلمت للمشهد ... تلاقت العيون ... تردد استرق نظرة أخــرى ... مــا زالت عيناها ... معلقتين نحوه ... كأنه يعرفها .. خطا نحوهــا ... خطـوات وئيدة .. تسمرت عيناه بها ... جلس إلى مقعد أمامها .. ألقى عليها التحيــة وهو جالس .. عرفته أنه هو ... تذكرها تلميذته المشاغبة .. خفيفة الظـل ... حاضرة البديهة ... كم أخرجته من مآزق لتعليقات بنات جيلــها ... وهــو حديث عهد بمعاملة فتيات المرحلة الثانوية ...نعم هي ... أنها وفاء .. كيــف حالك ؟ .. وماذا تفعلين هنا ؟

وهل تزوجتي ؟... وهل ؟... وهل ؟... سيل عارم من أسئلة ازدحم بها خيالــه ... على طرف لسانه ... بعضها أفصح عنه والعديد يبحث له عن إجابة ...

ابتسمت كعادتها ... وانفرجت أساريرها ... ثم ابتدرته قائــلة : أخبــار المدرســة " أيه " ... طبعاً " محدش غلبك زي " ... ابتسم ... سألته ماذا تفعل هنا ؟... طبعاً " جاي تغير جو " ...... ما زالت عيناه معلقتين بهــا ... تســأل ويجيب ... تبتسم ... وتضحك إلى أن ابتدرته قائلة له في لهجة تحدي بصــوت لفت انتباهه وأخرجه إلى ادراكه ... هل تلعب طاولة ؟... وهل ؟! تماســك ضحك بملء فيه ... شاركته الضحك ... أعادت عليه نفس السؤال !! طاولـة ... !! إيه أنت تجلسين في نادي ... ليس في قهوة ... ما زالت جادة

في قولها ... طاولة طبعاً وفي النادي ... ولو كسبت ... أشرب قهوة على حسابك ... تحدي ... " بقى " .. أشارت إلى العامل .. طاولة من فضلك... ثم أخذت في ترتيب عناصرها .

ينظر إليها ، حركت داخله دفين مشاعره .. نظرت إليه تريد أن تكسبه .. كعادتها مع قرنائها سابقاً في ألعاب أخرى ... استمرت في اللعب ... اللعبة أوشكت على الانتهاء ... الفائز أصبح على وشك أن ينهي اللعبة ... خشى أن لا يراها ثانية ... لا يريد أن تضيع منه مرة ثانية ... اهتم بمناوشتها والتعرف أكثر على حالها وعنوان مسكنها ومقر عملها ... لا يريد أن يخسرها ...

تحمست ... آخر رميه لحجري النرد قد ينهي كل الشوط ... رمتها تريد أن تكسبه ... ويريد أن يكسبها

ولكن النتيجة تختلف ... دائماً !!

.. تمت ..

(إنذار ؟)

دقة.. واحدة لكنها قوية .. دقة عنيفة .. واحدة اعـــرف دقـــات ساعة الحائط واعرف جيداً دقات جرس المدرسة وأعرف دقات ضبط الوقـت . سمعتها كثيراً في التلفاز والمذياع وسمعت دقات ساعة جامعة القاهرة الها لغـــة واحدة لمفهوم واحد .. لمعان متعددة؛لمواقيت مختلفة عرف سامح كـــل هـــذه المعاني بعد أن أصبح طريح الفراش أخذ يتذكرها يستحضرها يتلوها الواحـــدة .. تلو الأخرى منذ انبلاج الصبح وصوت الطير الغادي وعلى دقات الســـاعة السادسة يهب من نومه لايهمه دقات الوقت بقدر ما يعنيه ... وســـريعاً يعــد نفسه للخروج للمدرسة يسمع نفير سيارة المدرسة .. لايهمه نفيرها سوى أنها إشارة صارخة لوقت الخروج من البيت وينطلق ... وتنطلق ..

يسمع دقات جرس المدرسة لا يعنيه تكرارها ســـــوى ان حصـــة؛ انتهت لتبدأ أخرى ينتهي اليوم الدراسي على وتيرة واحدة .. لاضير . تكـــوار أدى إلى تعود .

يخرج مترجلاً من مدرسته يعبر الطريق إلىآخر تصل إلى مســـامعه دقات جرس تنبيه غير مألوفه .

إنها دقات متفاوتة الحس .. والسمع والنظـــر لايمكـــن مقارنتـــها بمجموعة دقات هزات خبطات .. كدمات .. تصدعات .. جروح صرخـــات .. صرخات اختلطت بصوت الباعة والناس في ذهول دوي تصادم لســــيارة عابرة لمزلقان ضيق لقطار سريع انحرفت السيارة لتأخذ في طريقـــها عربـــات أخريات على الجانب الآخر ... مازال صداه يزلزل كيـــان ســـامح المصـــاب يردده حسه في كل شئ حوله .. لايستطيع سرده أو حصره لأنها دقـــات .. كل الدقات .. تجمعت وانفردت بها مسامعه دون سابق إنذار .

تمت

التل الأحمر

أمسكت بتلابيب جدي أهرول وهو يخطـــو خطواتـــه الوئيـــدة ، متحدياً لشمس الظهيرة ورمضاء الطريق ، متجهاً إلى ربوة طينيـــة يكســـوها شقافات فخار قديم ، مغموسة برمال الخماسين المتطايرة ، مطلة على شاطئ ما أبدعه يتوسط المسافة بين حدود مصر الشرقية عند رفح مسترسلاً إلى بلـــدة الخروبة غرباً ، يتخطى الناظر من أعلاه حدودهما تتبع تعرجـــات الشـــاطئ الزبد، ويمتد حتى يتلاقى الزبد الأبيض ، يحده زرقة لانهائية ويجاوره خط رفيـع أصفر هو لون الرمال المتباعدة التي تستند إلى واحة خضـــراء ممتـدة جنوبـاً صانعة ترنيمة إلهية .. ما أبهى ماخلق الاءله .

وقف جدي منتصباً يجول ببصره الحد الشمالي ويمتد بعذابات الحـد الشرقي وتبسم أملاً في الحد الغربي ، ثم تطرق ببصر جامد الملامح أمام عمـره في المد الجنوبي ، شريط أخضر يعلو جبين رأس بشعر أحمر وفســـتان رملـي أصفر تتخلله سهول خضراء وتعرجات لغرود وتلال تتحدى العمر والزمـــن البصري .

أطرق جدي يتسم ، رآني ممسكاً بتلابيبه ، تلونت عينـاى بزرقـة السماء المنعكسة على بساط الماء ، اللون يبدو باهت ، الخوف قائم والأمـــل منتصباً على قدمين عاريتين ، والزمان داء ودواء .

جلس القرفصاء وشعرت بأن أضلعي تكاد تختلف عن مواضعها من ضمة ... ضمني إياها عمري كله الآن فداها .

جبروت الصحراء خط خطوطه على جبينه وقسوة الحياة في خشونة كفيه وبارقة أمل تتململ حباً وصخباً بين ساعديه انفلتت يدي مندفعة أعلـــى تتحسس الضلوع ... تحصيها ... تلمس أناملي شعيرات بيضاء للحية خفيفة

ناعمة ، إن لونها يعكس صفاء نفس راضية مطمئنة يرحمها الله .

الزمان يتقدم .. نملكه ويتمكن منا ، نحصيه ويتفوق علينا ، عرفتـــه الآن بين يدي ابني وكنت قد جهلته سابقاً ، وقفت وقفة جـــدي ووضعـــت سنوات .. عمري ، أحدث ابني ويحدثني ، ويسألني عـــن موضـــع قدمـــي ، أطرقت أتسمع مقولة جدي ..!!

الطريق البري ، الفتوحات الإسلامية ، طريـــق التتار ، قطار الشرق السريع ، الطريق يزدوج بالأحداث ، هزيمة ونصر ، فـــر وكر ، حرب وسلام .

صوت برئ يعيد السؤال ، التفت إليه والتفت إليَّ وجدت نفسي وابني وحفيدي نقف في نفس المكان الذي وقفت عليه صبياً قديماً .. إنه التل الأحمر .

تمت

ثور في فنجان

قبضت عليه قبضاً يسيراً ، استشعرت دفئاً غريباً يسري في ذاتهـــا ، ينفث مداده يبعثر ذكرياته لتدب في كل أوصالها ، لم يخالجـــها أدنى شـــك في مقدرته الفائقة على اليقظة ، ولم يعتريها حد أدنى في قدرته علـــــى التحـــدي للحظات قد تكون أجمل ما يتمنى المرء ، عندما يستطيب لذة أو يستشعر لحظة مذاق طيب أو رائحة جميلة ، تتبعثر على أعتابها الآماني ، وتزدحم الذاكـــــرة بكل مايثير لهفها ، ويؤجج ثورة مزاج عارمة في خياشيمها ، تسري رويداً عبر فم مخضب بالحناء ، تذوب على أثرها حبات ثلج كانت يابسة، تسري لرافـــد عذب المذاق عند نهاية انبعاثه حيث حرارته تمتد إلى جوانب شتى تتصبب عرقاً ، وتزداد حنيناً ، ولا يتحمل السيل زبدا .

مازال فنجان القهوة يزهو بيدها ، وتستفيق ، ترشف رشفة أخـــيرة باردة ، قد تجمد أوصالها ، وقد تعيدها إلى عصر الجليد السابق وأنهار الغربـــة وأشجار اللوز العتيقة ، ومذاق امرأة شرقية تساورها الشـــكوك مـــن آن إلى آخر ، تلهث لمجرد الذكرى ، تعدو خلف عادتها القديمة ، تلعن كل شـــئ إلا شيئاً مفقوداً ، يعصف بها ، يشل حركتها ، يمنع اندفاع الدم ، والدمـــع مـــن عينيها ، يلهب وجنتيها لتعود للفنجان مرة أخرى ، أكثر برودة وأكثر فراغـــاً ، وتغيب في جوفه كل الذكريات .

.. تمت ..

حروف ترتجف

ضحكة عارمة من جوف عميق ، تسربت بكاملها خارج حـــدود الغرفة ، تلتقي بالأبواب فتخترقها ، تعبر النوافذ غير عابئة بزجاجها ، تعـــبر الجدران غير حافلة بألوانها ومركباتها الكيميائية المعقدة ، لم تأخذ شكلاً مــن أشكال الضوء لتسير في خط مستقيم قد ينحرف لا ينكسر ، بل ينعكس عــن فؤاد وقلب تواق إلى الوضوح .

أي زلزلة تلك التي جاوزت حد الارتعاش فانكمشـــت وأي مـــد جاوز حد الانحسار وتراجعت وتكورت على نفسي .

رأيتها يقظة تفيض بالسحر والجمال ، رأيتها سامدة تنطق بآيـــات الجلال والكمال ، رأيتها متبسمة تسمو فوق كل العذابات . لم يخـــالجني أدنى شك ، إنها صابرة ، ولم يعتريني أدنى نصب . تكورت على نفسها جذبت يدي وساعدي ، جذبت كل ذراعي ، عبرة دافئة تلسع أناملي ، تعتصر الحياة فيــها والغضب ، أسبلت جفوني وأقسمت ألا أعكر صفوها ، إستسلمت وتنبأت .

طفل صغير تبارك الخالق فيما أبدع عينان سوداوان وبشرة بيضـــاء مشربة بحمرة ، كفان رقيقان يتضرعان ، وثغر يبتسم الآن ، تقبـــض علـــى ذراعي ، يصرخ الطفل وذراعي ينحسر عنه الألم ، أشعر بـــدفء غريـــب ، الطفل يبتسم . عبارات تدليل واضحة ، ، وأنشودة ضحك متواليـــة تـــزداد حدتها وتنخفض ، وذراعي يتمدد وينكمش ، والطفل يكبر والحـــوار يـــزداد حدةً ، صراخاً ، مواءً مكتوم الأنفاس ، والطفل يكبر وحروف مفردات تعانق شفتيه ، تضرم حطباً وتطفئ جمراً ، الحرارة ترتفع ، إني أرتجـــف ، أنكمـــش أتكور مثلها تماماً ، يصرخ الطفل ألماً ، جوعاً ، عطشاً ، عبثاً ، يزداد تكـــوري ، تحتضن الصغير بشدة وينحسر الغطاء .

تمت

الطوق

انخرطت تستجدي مفردات غائبة ، وهبت لها نفسـها التواقـة إلى حضن حنون ، إلى ذراعين مفتولين تقبضان بقوة وحزم على أجزائها فتتداخـل ، فينغمس الشهد بالدموع ، وترتوي الجذور قبل الفروع وتتفتـح أزهارهـا وينتشر الأريج .

انفلت عنها يكر حباً ورهباً فقدت قميصه من دبر وأطاحت بالبـاب وأحكمت المزلاج ، خارت قوى مجهولة تنبش الأمل بأنامل من طـين لازب وعاديات الطريق تبعثر الغبار والعهن وتنشر الصخب فيتوارى خلف الجـدران في صمت أبدى مكتوم الأنفاس والأجراس ، تعلو نبرات الشجن والخـوف يتبدد الأمل .

سنة كاملة يجوس الديار ، سنة كاملة يستدر الهـوى ويسـتند إلى سورها المنكسر ، يعلوه فتزداد الهوة يحبو نحوه فتتفلت حباته ويزداد الشـرخ اتساعاً ، فينهدم عليها ولايبالي ، حاورته الحوار الجميل فغض البصر ، طاولتـه الحديث فما استساغ منه شئ ، قدّ مضجعها وأوسع وحشتها وتركها تزفـل الألم وترتوي المحنة .

بريق ينطفئ في عينيها ، حيازها ماعاد يلهب الوجد ، ماعادت تلك العيون تبصر في النور واستسلمت للظلام ، راحت تبحث عن ضالتها ، عـن شئ مفقود ألفته ، ولم تخشاه ولم تقدر النصاب ، عاودها الحنين ، وعاودتهـا الذكريات فبحثت عن بني جنسه ، خاطبت من تعلق به قلبها ، استشـعرت فيه النجاة ، فما صد فعلها وأشفق عليها وحاول يثني ذلـك الـذي قـض مضجعها وأونس في يوم ما وحشتها ، فما أعره اهتمام وأكـترث لفعلتـها . عاودت ذاك الذي من بني جنسه عن حالها وعن سوء حظها ، عن الأبواب

الموصدة دونها . حلمت وحلم معها واتسع الحلم ليشمل آخرين تعددت الخطايا فبحثا عن طوق وأمل فيه نجاة .

مازال الطريق منفرجاً والجرح لم يندمل والحنين يتصاعد له أبخـــــرة ودخان وأحجية وأحجبة .

.. تمت ..

التحدي

وقف قبالتها يستمطر دمعة من عينيها ، كـــانت جـــامدة الملامـــح مشدودة القامة ينفر من صدرها إصبعا اتهام وعلامة تعجب غاية في الطـــــول والعرض ، لم تكن جادة في فعلها أو قولها مثل تلك المرة .

اعتلت سلمات البيت وشاحت بوجهها تتأمله بكلتا عينيها ، تغوص داخله تبحر في عينيه الذابلة المستسلمة ، تجدف بكلتا راحتيها تمزج الماء المالح والدمع الساخن فيزداد مفيض البحر ويعلو الزبد الساري ويحط قريبا من قلبه فيغلي ويزبد مثله تماما ، تجدف بكلتا راحتيها فينخدش الزبد مـــــن أظافرهـــا ويهترئ ، تجدف بكلتا راحتيها فتغرب شمسها إلى شفق يشبه قلبه المتورم .

لوى ظهره مستقبل المشرق فخدش حياءه نسمة صبا وصبا .

ماجت كل شجونه واعتلى كل المحن وأنشد يغني أغنيته الوحيـــدة " يا مفرقين الشموع قلبي نصيبه فين " .

أي جنية أنت يا أغنية الشموع الذابلة وأي قلب أنت أيها المتأرجح في هواء الخريف قد يعيد الظلم والظلمة معا .

عاودته أغنيته وعاوده الحنين ، ماعادت أمطار الخريف تبلل الزهـــر وتدب فيها الروح وما عادت رياح الخماسين ترهب القبطـــان علــى ظـــهر السفينة ، وماعدت أنا .. أنا فقد انشرخ صدرا .. كان منذ قليل منشـــرحا ، يجلو الريم عن قاعه ويعلو الزبد سماءه ، وتخضر الأرض ربيعا شقيا في رباه .

طأطأ رأسه وجاس مفردات الكلام ، عقل منه ماعقل وتـــبرم مـــن كثير ، ذابت البسمة على شفتيه ، وأنطفأ ضوءا وهاجا بين ضلوعـــه ، وراح يستمطر الغضب واللعنات فما طاوعه فؤاد أو لسان وما طاوعته النقم ، أطفأ قنديله ، وفض مداده ، واغمد خنجره ، أودع السيف غمده ، نحـــر غضبـــه وتركها بين أرض جرداء وسماء مقلعة .

تمت

انتصار

متبرماً منتفخ الأوراج وقف يتفرس الغادي والوافد ، وقفت أحاكيه بقدر . أخرج من جيبه المنتفخ دوماً سيجاراً اسطوانياً ضخماً به استطالة غـير معهودة لدى وكأنه ذراع طفل رضيع تعلقت بقبضته ثم بين شدقيه ، سـريعاً التقطت عقب سيجارتي الوحيدة المنطفئ ووضعته بين أصبعي - أعتقد لم يرهـا أحد سواي لدقة حجمها .

أخرج من جيبه ولاعة فتسارعت إليه يدان نظيفتان ، هكذا كانتـا بالنسبة لي - أشعلا سيجاره فتوهج وجهه ، ثم سرت أمامه غباشة من الدخان

وضعت يدي في جيبي الأيمن وهكذا بـاقي جيـوبي الفارغـة ثم عاجلت أحد المارة أطلب سيجارته ، كانت سيجارته بمثابـة عمـود إنـاره بالمقارنة بما أخفيه بين إصبعي ، وقف مذهولاً لما أفعله ، ابتسمت له ووضعـت يدي في جيبي وأخرجت له قماشها المهترئ فشملني بنظرة ومضى يشيح بيـده بما يشبه الاعتراض أو التعجب وكلاهما أتوقعه وأكثر .

كلانا على جانبي مقهى ، جذب كرسياً نظيفاً جداً وحشر نفسه بين جنبيه وحاول أن يصنع ساقاً على ساق ، لكنه لم يفلح - عاجلته بنفس الحركة وجذبت الكرسي القريب مني رغم عريه من الجانبين إلا أنني أفلحت في وضع رجلاً على رجل .

هزمته للمرة الأولى وأخذت أتفرسه ملياً ، سيجاره يحيطـه بهالـة ضخمة من الدخان - هزمته في نفسي أنك تلوث الهواء النقـي - سـيجارتي فنيت الآن ، أخرجت من جيبي قلم يضاهي ولايجاوز قطر سيجاره ، التقطـت ورقة من كتاب كان يؤنس غيظي ويكبح جماح نفسي ودخان السيجار يثـير حمية نفسي أشعرني بهزيمة نكراء - دفنت القلم بين سطور ورقتي البيضاء ،

أخذت أجوب سطورها واحداً تلو الأخر بمداد أسود مـــن قـــرن الخروب - أشعر بحقد شديد عليه الآن واستشعرت حقده لأنني ألون الـــورق بالمداد ، امتنع عن التدخين ولم أمتنع عن الكتابة ، بعد لحظات انقشع الضباب الصناعي ، وهدأت موجاته المتلاحقة ، فظهر كل شئ حوله جميلاً كما كـان ، ولكن ورقتي التي كانت بيضاء قد شملها المداد الأسود ، قـــام مـــن مكانـــه يتفرسني من جديد ويرمقني بكلتا عينيه المنصبة على المداد المســـطور يلعـــن تخلفي وفقر حالتي فرمقته بكلتا عيني وجوارحي ألعن غباءه وسوء طويته .

تمت -

الفهرس

القصـــــة — الصفحة

١ – كلمة الثقافة ....

٢ – مقدمة بقلم محمد جبريل ....

٣ – إهداء ....

٤ – الوجه الحسن ٧

٥ –الاغتيال سراً ١١

٦ – غادة ١٧

٧ – البداية ١٩

٨ – فتى الفتيان ٢٢

٩ – الجذع الخرب ٢٥

١٠ – شئ من الأرض ٢٨

١١ – أسياد .. أحياء وأموات ٢٩

١٢ – النظرة الأخيرة ٣٧

١٣ – الحصاد مرتان ٤٢

١٤ – دفء ٤٥

١٥ – وصية ٤٨

١٦ – غفوة ٥٢

١٧ – نظرة واحدة تكفي ٥٤

١٨ - كوب شاي ٥٦
١٩ - الحلم الضائع ٥٨
٢٠ - أم الغيث ٦٢
٢١ - دائماً النتيجة تختلف ٦٤
٢٢ - انذار ٦٧
٢٣ - التل الأحمر ٦٩
٢٤ - ثور في فنجان ٧٢
٢٥ - حروف ترتجف ٧٤
٢٦ - الطوق ٧٦
٢٧ - التحدي ٧٩
٢٨ - إنتصار ٨١
٢٩ - فهرس ٨٤

رقم الإيداع	٨١٤٣/٢٠٠٠
الترقيم الدولي	I.S.B.N

مطبعة الفارس العربي
بالعريش